



الأرواح المتمرّدة (1908)

Author

جبران خليل جبران

قصص جبران الأربع الكاملة من الطبعة العربية الأولى: السيدة وردة، صراخ القبور، مضجع العروس، و خليل الكافر.

Contents

3	Opening page
4	السيدة ورده
19	صراخ القبور
31	مضجع العروس
42	خليل الكافر
89	Source credits
90	Back page

«إلى الروح التي عانقت روحي. إلى القلب الذي سكب أسرارَه في قلبي. إلى اليد التي
أوقدت شعلة عواطفِي أرفع هذا الكتاب» (جبران)

السيدة ورده

السيدة ورده

ما انعس الرجل الذي يجب صبية من بين الصبايا ويتخذها رفيقة لحياته ويهرق على
اقدامها عرق جبينه ودم قلبه ويضع بين كفيها ثمار اتعابه وغلة اجتهاده ثم ينتبه
فجأة فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بجاهدة الايام وسهر الليالي قد أعطي مجاناً
لرجل آخر ليتمتع بمكنوناته ويسعد بسرائر محبته

وما انعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها
بامواله وعطاياه ويسر بلها بالتكريم والموءانسة لكنه لا يقدر أن يلامس قلبها بشعلة
الحب المحبية ولا يستطيع ان يشبع روحها من الخمرة السماوية التي يسكبها الله من
عيني الرجل في قلب المرأة

* * *

عرفت رشيد بك نعمان منذ حادثتي . وهو رجل لبناني الاصل بيروتي المولد والدار
متحدر من اسرة قديمة غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الامجاد الغابرة فكان
مولعاً بسرد الحوادث التي تبين نبالة آبائه وجدوده متبعاً بمعيشته عقائدهم
وتقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم عن العادات والازياء الغربية المرفرفة كاسراب الطيور
في فضاء الشرق

وكان رشيد بك طيب القلب كزيم الاخلاق لكنه كالكثيرين من سكان سوريا لا ينظر
الى ما وراء الاشياء بل الى الظاهر منها . ولا يصغي إلى نغمة نفسه بل يشغل عواطفه
باستماع الاصوات التي يحدثها محيطه . ويلهي امياله بهرجة المرثيات التي تعمي
البصيرة عن اسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى ملاحقة الملذات
الوقتية . وكان من اولئك الرجال الذين يتسرعون باظهار محبتهم او مقتهم للناس
وللاشياء ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت عند ما تصير الندامة مجلبة

للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران

هذه هي الصفات والاخلاق التي جعلت رشيد بك نعمان يقتترن بالسيدة ورده الهاني قبل ان تضم نفسها نفسه في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة الزوجية نعيماً

* * *

غبت عن بيروت بضعة اعوام ولما رجعت اليها

ذهبت لزيارة رشيد بك فوجدته ضعيف الجسد مكمد اللون تتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الاحزان وتنبعث من عينيه الحزينتين نظرات موجوعة تتكلم بالسكينة عن انسحاق قلبه وظلمة صدره . وبعيد ان بحث في محيطه ولم اجد اسباب نحوله وانقباضه سألته قائلاً: ما اصابك ايها الرجل واين تلك البشاشة التي كانت تنبعث كالشعاع من وجهك . واين ذهب ذاك السرور الذي كان ملاصقاً شبيبته ؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز ام سلبتك الليالي السوداء ملاً جمعته في الايام البيضاء ؟ قل لي بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك وهذا التحول المالك جسدك

فنظر الي نظرة متأسف ارته الذكرى رسوم ايام جميلة ثم حجبته . وبصوت تتموج في مقاطعه معاني اليأس والقنوط قال : «اذا فقد المره صديقاً عزيزاً والتفت حوله يجد الأصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزى واذا خسر الانسان ملاً وفكر قليلاً رأى النشاط الذي اتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو . ولكن اذا اضاع الرجل راحة قلبه فاين يجدها وبم يستعويض عنها ؟ يمد الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجع ولكن لا يمر يوم وليلة حتى تشعر بملامس اصابع الحياة فتبتسم وتفرح . يجيئك الدهر على حين غفلة ويحرق بك بأعين مستديرة مخيفة ويقبض على عنقك باظافر محددة ويطرحك بقساوة على التراب ويدوسك باقدامه الحديدية ويذهب ضاحكاً ثم لا يلبث أن يعود اليك نادماً مستغفراً فينتشلك با كفه الحريرية ويغني لك نشيد الأمل فيطربك. مصائب كثيرة ومتاعب اليمة تأتيك مع خيالات الليل وتضمحل امامك بمجيء الصباح وانت شاعر بعزيمتك متمسك بامالك . ولكن اذا كان نصيبك من

الوجود طائر ا تحبه وتطعمه حبات قلبك وتسقيه نور احداقك وتجعل ضلوعك له قفصاً ومهجتك عشا . وبينما أنت تنظر الى طائرك وتتمز ريشه بشعاع نفسك اذا به قد فر من بين يديك وطار حتى حلق السحاب ثم هبط نحو قفص اخر وما من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل إذ ذاك ايها الرجل . قل لي ماذا تفعل واين تجد الصبر والسلوان وكيف تحيي الامال والاماني ؟ »

لفظ رشيد بك الكلمات الاخيرة بصوت مخنوق متوجع ووقف على اقدامه مرتجفا كقصبه في مهب الريح ومد يديه الى الامام كأنه يريد ان يقبض باصابعه المعوجة على شيء ليمزقه إرباً إرباً وقد تصاعد الدم الى وجهه وصيغ بشرته المتجعدة بلون قاتم وكبرت عيناه وجمدت اجفانه واحدق دقيقة كأنه رأى امامه عفريتاً قد انبثق من العدم وجاء ليميته . ثم نظر الي وقد تغيرت ملامحه بسرعة وتحول الغضب والحنق في جسده المهزول الى التوجع والالم وقال باكياً : « هي المرأة المرأة التي انقذتها من عبودية الفقر وفتحت امامها خزائني وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلى الثمينة والمركبات الفخيمة والخيول المطهمة - المرأة التي احبها قلبي وسكب على اقدامها عواطفه ومالت اليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا - المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً وزوجاً أميناً قد خاننتني وغادرتني وذهبت الى بيت رجل آخر لتعيش معه في ظلال الفقر وتشاركه باكل الخبز المعجون بالعار وشرب الماء الممزوج بالذل والعيب - المرأة التي احببتها .. الطائر الجميل الذي اطعمته حبات قلبي واسقيته نور احداقي وجعلت ضلوعي له قفصاً ومهجتي عشا قد فر من بين يدي وطار الى قفص اخر محبوك من قضبان العوسج لياكل فيه الحسك والديدان ويشرب من جوانبه السم والعلقم - الملاك الطاهر الذي سكنته فردوس محبتي وانعطافي قد نقل اب شيطاناً مخيفاً اهبط الى الظلمة ليتعذب باثامه ويعذبني بجريمته »

وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد ان يحمي نفسه من نفسه ثم تنهد قائلاً : « هذا كل ما اقدر ان اقلوه فلا تسألني اكثر من ذلك ولا تجعل لمصيبتي صوتاً صارخاً بل دعها مصيبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة فتميتني وتريحني » فقامت من مكاني والدموع تراود اجفاني والشفقة تسحق قلبي ثم ودعته ساكتاً لاني لم اجد في

بعد أيام التقيت لأول مرة بالسيدة ورده الهاني في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار وكانت قد سمعت فظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ذلك الرجل الذي داست قلبه وتركته ميتاً بين جوافر الحياة . ولما رأيت عينيها المنيرتين وسمعت نغمة صوتها الرخيمة قلت في ذاتي : «أتقدر هذه المرأة ان تكون شريرة . وهل بإمكان هذا الوجه الشفاف ان يستتر نفساً شنيعة وقلباً

مجرماً ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة - أهذه هي المرأة التي جنيت عليها مرات عديدة بتصويرها لفكري كتعبان

مخيف مختبئ في جسم طائر بديع الشكل؟» ولكني رجعت وهمست في سري قائلاً: (إذا أي شيء ذلك الرجل تعسّاً إذا لم يكن هذا الوجه الجميل ؟ أولم نسمع ونرّ أن المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية هائلة وأحزان عميقة أليمة ؟ أوليس القمر الذي يسكب في قرائح الشعراء شعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينه البحار بالمد والجزر)

جلستُ وجلستُ السيدة وردة وكأنها قد سمعتني مفتكراً، فلم ترد أن يطول الصراع بين حيرتي وظنوني، فأسندت رأسها الجميل بيدها البيضاء وبصوت يحاكي نغمة الناي رقةً قالت: «لم ألتقي بك قبل الآن أيها الرجل، ولكني سمعت صدى أفكارك وأحلامك من أفواه الناس، فعرفتُك شفوفاً على المرأة المظلومة، رؤوفاً بضعفها

خبيراً بعواطفها وميولها؛ من أجل ذلك أريد أن أبسط لك قلبي وأفتح أمامك صدري

لترى مخباته وتخبر الناس إن شئت بأن وردة الهاني لم تكن قط امرأة خائنة شريفة...كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما قادني القدر إلى رشيد بك نعمان، وكان هو إذ ذاك قريباً من الأربعين فشغف بي، ومال إليّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس، ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خُدَامِهِ الكثيرين، فألبسني الحرير وزَيَّيْنِ رأسي وعنقي ومعصمي بالجواهر والحجارة الكريمة، وكان يعرضني كتحفة غريبة في منازل أصدقائه ومعارفه، وبيّتسم ابتسامة الفوز والانتصار عندما يرى عيون أترابه ناظرة إليّ بإعجاب واستحسان، ويرفع رأسه تيهًا وافتخارًا إذ يسمع نساء أصحابه يَتَكَلَّمْنَ عني بالإطراء والمودة، لكنه لم يكن يسمع

٢٠

قول السائل (أهذه زوجة رشيد بك أم هي صبية تَبَنَّاها) وقول الآخر (لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان بكره أكبر سنًا من وردة الهاني)...جرى كل ذلك قبل أن تستيقظ حياتي من سبات الحداثة العميق، وقبل أن توقد الآلهة المحبة في قلبي، وقبل أن تنبت بذور العواطف والأميال في صدري، نعم جرى كل ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزين قامتي، ومركبة فخمة تجرني ورياش ثمينة تحيط بي، ولكن عندما استيقظت، عندما استيقظت وفتح النور أجفاني، وشعرت بالأسنة النار المقدسة تلسع أضلعي وتحرقها، وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها، عندما استيقظت ورأيت أجنحتي تتحرك يمينًا وشمالًا، وتريد النهوض بي إلى سماء المحبة، ثم ترتجف وترتخي عجزًا بجانب

٢١

سلاسل الشريعة التي قيّدت جسدي قبل أن أعرف كُنه تلك القيود، ومفاد تلك الشريعة.عندما استيقظت وشعرت بهذه الأشياء عرفت بأن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده، ولا بكرمه وحلمه، بل بالحب الذي يضم روحها إلى روحه، ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها و يجعله عضوًا واحدًا من جسم الحياة وكلمة واحدة على شفطي الله، عندما بانث هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي رأيته في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق يأكل خُبْزَهُ، ثم يستتر بظلام الليل، وعرفت أن كل يوم أصرفه بقربه

هو كذبة هائلة يخطها الرياء بأحرف نارية ظاهرة على جبهتي أمام الأرض والسماء؛
لأنني لم أقدر أن أهبه محبة قلبي لقاء كرمه، ولا أن أمنحه انعطاف نفسي ثمناً
لإخلاصه وصلاحه، وقد حاولت وباطلاً حاولت أن أتعلّم محبته

٢٢

فلم أتعلم لأن المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا، وقلوبنا لا تقدر أن تبتدعها، ثم صليت
وتضرعت، وباطلاً تضرعت وصليت في سكينه الليالي أمام السماء لتولد في أعماقي
عاطفة روحية تقريني من الرجل الذي اختارته رفيقاً لي، فلم تفعل السماء لأن المحبة
تهبط على أرواحنا بإيعاز من الله لا بطلب من البشر. وهكذا بقيت عامين كاملين في
منزل ذلك الرجل أحسد عصافير الحقل على حريتها، وبنات جنسي يحسُنني على
سجني، وكالتكلى الفاقدة وحيدها كنت أندب قلبي الذي وُلِدَ بالمعرفة، واعتل
بالشرعية، وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً، ففي يوم من تلك الأيام السوداء
نظرت من وراء الظلمة، فرأيت شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على
سبل الحياة، ويعيش منفرداً بين أوراقه وكتبه في هذا البيت

٢٣

الحقير، فأغمضت عيني كي لا أرى ذلك الشعاع وقلت لنفسني (نصيبك يا نفس ظلمة
القبر فلا تطمعي بالنور) ثم أصغيت فسمعت نغمة علوية تهز جوارحي بعذوبتها،
وتمتلك كليتي بطهرها فأغلقت أذني وقلت (نصيبك يا نفس صُراخ الهاوية فلا تطمعي
بالأغاني)...أغمضت أجفاني كي لا أرى، وأغلقت أذني كي لا أسمع، لكن عيني ظَلَّتْ
تريان ذلك الشعاع، وهما مُطَبَّقَتَانِ، وأُذُنَيَّ تسمعان تلك النغمة، وهما معلقتان فخفت
لأول وهلة خوفٌ فقير وجد جوهره بقرب قصر الأمير، فلم يجسر أن يلتقطها لخوفه،
ولم يقدر أن يتركها لفاخته، وبكيت بكاء ظامئٍ رأى ينبوع العذب محاطاً بكواسر
الغاب، فارتمى على الأرض مترقباً جازعاً.

وسكتت السيدة وردة دقيقةً وقد أغمضت عينيها الكبيرتين كأن ذلك الماضي قد
انتصب امامها فلم تجسر ان تحديق به وجهاً لوجه ثم عادت وقالت : «هؤلاء البشر

الذين يجيئون من الابدية ويعودون اليها قبل ان يذوقوا طعم الحياة الحياة الحقيقية لا يمكنهم ان يدركوا كنه اوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بارادة السماء. ورجل تلتصق به بشريعة الارض هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الانثى ودموعها يقرأها الرجل ضاحكاً لأنه لا يفهمها وان فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوة وانزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً وملاء اذنبها لعناً وتجديفاً. هي رواية موجعة تمثلها الليالي السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيداً بمضجع رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ما هي الزيجة. وترى روحها مرفرفة حول عنق رجل آخر تحبه بكل ما في لروح من المحبة وبكل ما في المحبة من الطهر والجمال. هو نزاع مخيف قد ابتدأ منذ ظهور الضعف في المرأة والقوة في الرجل ولا ينتهي حتى تنقضي ايام عبودية الضعف للقوة. هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف القلب المقدسة قد طُرحت بالامس في ساحتها وكدت اموت جزعاً واذوب دموعاً. لكنني وقفت ونزعت عني جبانة بنات جنسي وحللت جناحي من رابط الضعف والعواطف. وكنت دنسة ودنيئة امام نفسي وامام الله والاستسلام وطرت في قضاء الحب والحرية وانا سعيدة الآن بقرب الرجل الذي خرج وخرجت شعلّة واحدة من يد الله قبيل ابتداء الدهور ولا توجد قوة في هذا العالم تستطيع ان تسلبني سعادتي لانها منبثقة من عناق روحين يضمهما التفاهم ويظللها الحب» ونظرت اليّ السيدة ورده نظرة معنوية كانها تريد ان تخترق صدري بعينيها لترى تأثير كلامها في عواطفي وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي. لكنني بقيت صامتاً كيلا اوقفها عن الكلام. فقالت وقد قارن صوتها بين بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحرية «يقول لك الناس ان ورده الهاني امرأة خائنة جحودة قد اتبعث شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها اليه وجعلها سيدة في منزله. ويقولون لك هي زانية عاهرة قد اتلفت بمقابضها القذرة اكليل الزواج المقدس الذي صفرته الديانة واتخذت عوضاً عنه اكليلاً وسخاً محبوباً من اشواك الجحيم. والقت عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت بلباس الاثم والعار. ويقولون لك اكثر من ذلك لان اشباح جدودهم ما زالت حية في اجسادهم فهم مثل كهوف الاودية الخالية يرجعون صدى الاصوات ولا يفهمون معناها. هم لا يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ولا يفقهون مفاد الدين الحقيقي ولا يعلمون متى يكون الانسان خاطئاً أو باراً. بل ينظرون باعينهم الضئيلة الى ظواهر الاعمال ولا يرون اسرارها فيقضون بالجهل ويدينون بالعمارة ويستوي امامهم المجرم والبريء، والصالح والشرير. فويل لمن يقضي وويل لمن يدين.. انا كنت زانية وخائنة في منزل

رشيد نعمان لانه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل ان تصيرني السماء قريبة له بشرية الروح والعواطف. وكنت دنسة وذنينة امام نفسي وامام الله عندما كنت اشبع جوفي من خيراته ليشبع امياله من جسدي. اما الان فصرت طاهرة نقية لان ناموس الحب قد حررتني. وصرت شريفة وامينة لانني ابطلت بيع جسدي بالخبز وايامي بالملابس. نعم كنت زانية ومجرمة عندما كان الناس يحسبوني زوجة فاضلة واليوم صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبونني عاهرة دنسة لانهم يحكمون على النفوس من مآتي الاجساد ويقيسون الروح بمقاييس المادة»

والتفتت السيدة ورده نحو النافذة وإشارت بيمينها نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة الاحتقار والاشمئزاز كانها رأت بين الازقة وعلى السطوح وفي الاروقة اشباح المفاسد وخيالات الانحطاط «انظر الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخيمة العالية حيث يسكن الاغنياء والاقوياء من البشر. فبين جدرانها المكسوة بالحرير المنسوج تقطن الخيانة بجانب الرياء.

وتحت سقوفها المطلية بالذهب المذوب يقيم الكذب بقرب

٢٩

التَّصَنُّعِ، انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثل لك المجد والسؤدد والسعادة، فهي ليست سوى مغائر يختبئ فيها الذل والشقاء والتعاسة، هي قبورٌ مكلسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه، وتنحجب في زواياها أنانية الرجل وحيوانيته بلمعان الفضة والذهب، هي قصور تتشامخ جدرانها تيهًا وافتخارًا نحو العلاء، ولو كانت تشعر بأنفاس المكاره والغش السائلة عليها لتشققت وتبعثرت وهبطت إلى الحضيض، هي منازل ينظر إليها القروي الفقير بأعين دامعة، ولو علم بأنه لا يوجد في قلوب سكانها ذرَّةٌ من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر رفيقته لابتسم مستهزئًا وعاد إلى حقله مشفقًا»

وأمسكت السيدة ورده بيدي وقادتني إلى جانب النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك

وقالت «تعال فأريك خفايا هؤلاء الناس الذين لم أرص أن أكون مثلهم، انظر إلى ذلك القصر ذي الأعمدة الرخامية والجوانح النحاسية، والنوافذ البلورية فيه يسكن رجل غني ورث ماله عن والده البخيل، واكتسب أخلاقه من جوانب الأزقة المفعمة بالمفاسد، وقد تزوج منذ عامين بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى أن لوالدها شرفاً موروثاً ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد، ولم ينقض شهر العسل حتى ملأها متضجراً، وعاد إلى مسامرة بنات الهوى، وتركها في هذا القصر مثلما يترك السكير جرة خمر فارغة، فبكت وتوجعت لأول وهلة ثم تصبرت وسلت سلو من عرف خطأه، وعلمت بأن دموعها هي أئم من أن تهرق على خسارة رجل مثل زوجها، وهي الآن مشغولة عن كل شيء بعشق فتى جميل الوجه حلو الحديث تسكب في راحتيه

عواطف قلبها، وتملأ جيوبه من ذهب بعلها الذي يغض الطرف عنها لأنها تغض الطرف عنه ... ثم انظر إلى ذلك البيت المحاط بالحديقة العنّاء، فهو مسكن رجل ينتمي إلى أسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة، وقد انخفض مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف أبنائها إلى التواني والكسل، وقد اقترن هذا الرجل منذ أعوام بفتاة قبيحة الصورة لكنها غنية جداً، وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة نسي وجودها، واتخذ له خلية حسناء وغادرها تنهش أصابعها ندمًا، وتذوب شوقًا وحنينًا، وهي الآن تصرف الساعات بتجعيد شعرها، وتكحيل عينيها وتلوين وجهها بالمساحيق والعقاقير، وتزين قامتها بالأطالس والحريز لعلها تحظى بنظرة من أحد زائريها لكنها لا تحصل إلا على نظرات شبّحها في المرأة ... ثم انظر إلى ذلك المنزل

الكبير المزين بالنقوش والتمائيل، فهو منزل امرأة جميلة الوجه خبيثة النفس قد مات زوجها الأول، فاستأثرت بأمواله وأملاكه ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف الجسم والإرادة، واتخذته بعلاً لتحتمي باسمه من أسنة الناس وتدافع بوجوده عن

منكراتها، وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً، وانظر إلى تلك الدار ذات الأروقة الوسيعة والقناطر البديعة، فهي مسكن رجل مادي الأميال كثير المشاغل والمطامع وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن، وكل ما في روحها حلو ولطيف، وقد تمازجت في شخصها عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتألف في الشَّعر نغمة الوزن برقة المعاني، فهي قد كونت لتعيش بالحب وتموت به، لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها

٣٣

والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها، ووضع عنقها تحت نير الزيجة الفاسدة، وهي الآن سقيمة الجسم تذوب كالشمع بحرارة عواطفها المقيدة، وتضمحل على مهل كالأرائكة الزكية أمام العاصفة، وتفنى حباً بشيء جميل تشعر به ولا تراه وتصبو حينئذٍ إلى معانقة الموت لتتخلص من حياتها الجامدة وتتححر من عبودية رجل يصرف الأيام بجمع الدنانير والليالي بعدها، وبصر أسنانه مجدداً على الساعة التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليُحيي اسمه ويرث ماله وخيراته ... ثم انظر إلى ذلك البيت المنفرد بين البساتين فهو مسكن شاعر خيالي، سامي الأفكار، روعي المذهب له زوجة غليظة العقل، خشنة الطباع، تسخر بأشعاره؛ لأنها لا تفهمها وتستنهزى بأعماله لأنها غريبة، وهو الآن مشغول عنها بمحبة امرأة أخرى متزوجة تتوقد ذكاءً

٣٤

وتسيل رقة وتولد في قلبه النور بانعطافها، وتوحي إليه الأقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها»

وسكنت السيدة وردة هنيئةً، وقد جلست على مقعد بجانب النافذة كأن نفسها قد تعبت من التجول في مخادع تلك المنازل الخفية، ثم عادت تقول بهدوء: «هذه هي القصور التي لم أَرُ أن أكون من سكَّانها، هذه هي القبور التي لم أَرُ أن أدفن حية طي لحودها، هؤلاء هم الناس الذين تخلصت من عوائدهم، وخلعت عني نير جامعتهم، هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترون بالأجساد، ويتنافرون بالروح ولا شفيح

بهم أمام الله سوى جهلهم ناموس الله، أنا لا أدينهم الآن بل أشفق عليهم، ولا أكرههم بل أكره استسلامهم عفواً إلى الرياء والكذب والخباثة، ولم أكشف أمامك خفايا قلوبهم وأسرار معيشتهم؛ لأنني لا أحب الاغتيال

٣٥

والنميعة بل فعلت ذلك لأريك حقيقة قوم كنت بالأمس مثلهم فنجوت، وأبين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة شريرة لأنني خسرت صداقتهم لأربح نفسي، وخرجت عن سبل خداعهم المظلمة، وحولت عيني نحو النور حيث الإخلاص والحق والعدل، وقد نفوئي الآن من جامعتهم، وأنا راضية لأن البشر لا ينفون إلا من تمردت روحه الكبيرة على الظلم والجور، ومن لا يؤثر النفي على الاستعباد لا يكون حراً بما في الحرية من الحق والواجب.

أنا كنت بالأمس مثل مائدة شهية، وكان رشيد بك يقترب مني عندما يشعر بحاجة إلى الطعام، أما نفسانا فتظلان بعيدتين كخادمين ذليلين، ولما رأيت المعرفة كرهت الاستخدام وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم أقدر؛ لأن روحي أبت أن أصرف العمر كله راحة أمام صنم مخيف أقامته

٣٦

الأجيال المظلمة، ودعته الشريعة، فكسرت قيودي لكنني لم ألقها عني حتي سمعت الحب منادياً، ورأيت النفس متأهية للمسير، فخرجت من منزل رشيد نعمان خروج الأسير من سجنه تاركة خلفي الحلي والحلل، والخدم والمركبات وجئت بيت حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح، وأنا عالمة بأنني لم أفعل غير الحق والواجب؛ لأن مشيئة السماء ليست بأن أقطع جناحي بيدي وأرتمي على الرماد حاجبة رأسي بساعدي ساكبة حُشاشتي من أجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة، إن السماء لا تريد أن أصرف العمر صارخة متوجعة في الليالي قائلة متي يجيء الفجر، وعندما يجيء الفجر أقول متى ينقضي هذا النهار.

إن السماء لا تريد أن يكون الإنسان تعسًا؛ لأنها وضعت في أعماقه الميل إلى السعادة؛ لأنه بسعادة الإنسان يتمجد الله. هذه هي حكايتي أيها الرجل وهذا

٣٧

احتجاجي أمام السماء والأرض، وأنا أُرَدِّدُهُ وأترنَّم به، والناس يغلقون آذانهم ولا يسمعون؛ لأنهم يخشون ثورة أرواحهم، ويخافون أن تتزعزع أسس جامعتهم وتهبط على رؤوسهم، هذه هي العقبة التي سِزْتُ عليها حتى بلغت قمة سعادتي، ولو جاء الموت واختطفني الآن لوقفت روحي أمام العرش الأعلى بلا خوف ولا وجل، بل بفرح وأمل، وانحَلَّتْ لفائف ضميري أمام الدِّيَّان الأعظم وبانت نقية كالثلج؛ لأنني لم أفعل غير مشيئة النفس التي فَصَلَهَا الله عن ذاته، ولم أتبع غير نداء القلب، وصدى أغاني الملائكة، هذه هي روايتي التي يحسها سكان بيروت لعنة في فم الحياة، وعلة في جسم الهيئة الاجتماعية، ولكنهم سوف يندمون عندما تنبه الأيام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة مثلما تستنبت الشمس الزهور من بطن الأرض المملوء من بقايا الأموات فيقف

٣٨

إذ ذاك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلاً: ههنا رقدت وردة الهاني التي حررت عواطفها من عبودية الشرائع البشرية الفاسدة لتحيا بناموس المحبة الشريفة، وحوَلَتْ وجهها نحو الشمس كي لا ترى ظل جسدها بين الجماعم والأشواك»

..*.*

ولم تَنْتَهِ السيدة وردة من كلامها حتى فُتِحَ الباب، ودخل علينا فتى نحيل القوام جميل الوجه تنسكب من عينيه أشعة سحرية، وتسيل على شفثيه ابتسامة لطيفة، فوقفت السيدة وردة وأمسكت بذراعه بانعطاف كلي وقدمته إليَّ بعد أن لفظت اسمي مذيلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً بنظرة معنوية؛ فعرفت بأنه ذلك الشاب الذي

صامتين لانشغال كل مِنّا بمعرفة رأي الآخر فيه حتى إذا مرت دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس إلى المأل الأعلى نظرت إليهما، وقد جلسا أحدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم أراه قط، وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وأدركت سر احتجاجها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الأفراد المتمردين على شرائعها قبل أن تستفحص دواعي تمردهم، رأيت روحًا واحدة سماوية متمثلة أمامي بجسدين يجملهما الشباب ويسربلهما الاتحاد، وقد وقف بينهما إله الحب بأسطًا جناحيه ليحميهما من لوم الناس وتعنيفهم، وحدث التفاهم الكلي منبعثًا من وجهين شفافين ينيرهما الإخلاص ويحيط بهما الطهر: وجدت لأول مرة في حياتي طيف السعادة منتصبًا بين رجل وامرأة يرذلها الدين وتنبذها الشريعة.

وبعد هنيهة وقفت وودعتهما مظهرًا بغير الكلام

تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحقيق الذي جعلته العواطف هيكلًا للحب والوفاق، وسرت بين تلك القصور والمنازل التي أظهرت لي خفاياها السيدة وردة مفكرًا بحديثها، وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والنتائج، لكنني لم أبلغ أطراف ذلك الحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان فتمثلت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه، فقلت في ذاتي: «هو تعس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء إذا وقف أمامها متظلماً شاكيًا وردة الهاني؟ هل جَنَثَ عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعت حرية نفسها أم هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل أن يستميل روحها بالمحبة؟ فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم. ومن هو المجرم ومن هو البريء يا ترى؟» ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتيًا أخبار الأيام مستقصيًا (حوادثها كثيرًا ما أباح الغرور

للنساء أن يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الأغنياء لأن شغف المرأة بهجرة

الملابس ونعومة العيش يُعمي بصيرتها ويقودها إلى العار والانحطاط، فهل كانت وردة الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غني مفعم بالحلي والحُل والرياش والخدم، وذهبت إلى كوخ رجل فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة؟ وكثيرًا ما يُميت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها، فتترك بعها ملأًا وتضجرًا، وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطًا وأقل شرفًا، فهل كانت وردة الهاني جاهلة راغبة بالملذات الجسدية عندما أعلنت استقلالها على رؤوس الأشهاد، وانضمت إلى فتى روجي الأميال، وقد كان بإمكانها أن تشبع حواسها سرًا في منزل زوجها من هُيام الفتيان الذين يستमितون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها؟

٤٢

وردة الهاني كانت امرأة تعسة، فطلبت السعادة فوجدتها وعانقتها، وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الإنسانية، وتنفيها الشريعة.

همست تلك الكلمات في مسامع الأثير ثم قلت مستدرگا: (ولكن أيسوغ للمرأة أن تشتري سعادتها بتعاسة بعها؟) فأجابتنني نفسي قائلة: (وهل يجوز للرجل أن يستعبد عواطف زوجته ليبقى سعيدًا؟)

وطلّلت سائرًا وصوت السيدة وردة يتموج في مسامعي حتى بلغت أطراف المدينة، والشمس قد مالت إلى الغروب، وابتدأت الحقول والبساتين تتشجُ بنقاب السّكينة والراحة، والطيور تنشد صلاة المساء، فوقفت متأملًا ثم تنهدت قائلاً أمام عرش الحرية تفرح هذه الأشجار بمداعبة النسيم

٤٣

وأمام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر.. على مسامع الحرية تتناجى هذه العصافير وحول أذيالها ترفرف بقرب السواقي، في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر

أنفاسها، وأمام عينيها تبتسم لمجيء الصباح .. كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعته ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها ...أما البشر فمحرومون من

هذه النعمة

لأنهم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة، وسَنُوا لأجسادهم ونفوسهم قانونًا واحدًا قاسيًا، وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجنًا ضيقًا مخيفًا، وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبرًا عميقًا مظلمًا، فإذا ما قام واحد من بينهم، وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا: هذا متمرّد شرير خليق بالنفي، وساقط دنس يستحق الموت ... ولكن هل يظل الإنسان عبدًا لشرائعه الفاسدة إلى انقضاء الدهر أم تحرره

٤٤

الأيام ليحيا بالروح وللروح؟ أبقى الإنسان محدقًا بالتراب أم يحول عينيه نحو الشمس كي لا يرى ظل جسده بين الأشواك والجماجم؟

تمت

صراخ القبور

٤٥

صراخ القبور

٤٦

١

ربع الأمير على منصة القضاء، فجلس عقلاء بلاده عن يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجعدة تنعكس أوجه الكتب والأسفار، وانتصب الجند حوله ممتشقين السيوف رافعين الرماح، ووقف الناس أمامه بين متفرج أتى به حب الاستطلاع، ومتربح ينتظر الحكم في جريمة قريبه، وجميعهم قد أحنّوا رقابهم، وخشعوا ببصائرهم وأمسكوا أنفاسهم كأن في عيني الأمير قوة توغز الخوف، وتوحي الرغبة إلى نفوسهم وقلوبهم. حتى إذا ما اكتمل المجلس، وأزفت ساعة الدينونة رفع الأمير يده وصرخ قائلاً: «أحضروا المجرمين أمامي واحداً واحداً، وأخبروني بذنوبهم ومعاصيهم.» ففتح باب السجن وبانت جدران المظلمة

٤٧

مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكيه متثائباً، وتصاعدت من جوانبه قلقة القيود والسلاسل متألّفة مع أنين الحبساء ونحيبهم، فحوّل الحاضرون أعينهم، وتناولت أعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة بنواظرهم؛ ليروا فريسة الموت خارجة من أعماق ذلك القبر.

وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى مكتوف الساعدين يتكلم وجهه العابس، وملامحه المنقبضة عن عِزّة في النفس وقوة في القلب، وأوقفاه وسط

المحكمة وتراجعا قليلاً إلى الوراء، فأحرق به الأمير دقيقة ثم سأل قائلاً: «ما جريمة هذا الرجل المنتصب أمامنا برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة؟»

فأجابه رجل من أعوانه قائلاً: «هو قاتل شرير قد اعترض بالأمس قائداً من قواد الأمير، وجندله صريعاً إذ كان ذاهباً بمهمة بين القرى، وقد قُبِضَ عليه والسيف المغمّد بدماء القتيل ما زال مشهوراً

٤٨

في يده»

فتحرك الأمير غضباً فوق عرشه، وتطايرت سهام الحنق من عينيه، وصرخ بأعلى صوته قائلاً: «أرجعوه إلى الظلمة، وأثقلوا جسده بالقيود وعندما يجيء فجر الغد اضربوا عنقه بحد سيفه، ثم اطرحوا جثته في البرِّيَّة؛ لتجردها العقبان والضواري، وتحمل الرياح رائحة نتانتها إلى أنوف أهله ومحبيه.»

أرجعوا الشاب إلى السجن والناس يتبعونه بنظرات الأسف والتنهيدات العميقة؛ لأنه كان فتى في ربيع العمر حسن المظاهر قوي البنية.

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبية جميلة الوجه ضعيفة الجسد، قد وشح معانيها اصفرار اليأس والقنوط، وغمرت عينيها العبرات، وألوت عنقها الندامة والحسرة.

فنظر إليها الأمير قائلاً: «وما فعلت هذه المرأة

٤٩

فأجابه أحد الجنود قائلاً: «هي امرأة عاهرة قد فاجأها بعلمها ليلاً، فوجدها بين ذراعي خليلها فأسلمها للشرطة بعد أن قرأ ليفها هارباً.»

فأحرق الأمير بها، وهي مطرقة خجلاً ثم قال بشدة وقساوة: «أرجعوها إلى الظلمة، ومَدِّدوها على فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعييها، وأسقوها الخل ممزوجةً بنقيع العلقم عساها تذكر طعم القُبَل المحرمة، وعند مجيء الفجر جروها عارية إلى خارج المدينة، وارجموها بالحجارة، واتركوا جسدها هناك لكي تتنعم بلحمانه الذئب، وتخر عظامه الديدان والحشرات.»

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون إليها بين معجب بعدل الأمير، ومتأسف على جمال وجهها الكئيب، ورقّة نظراتها المحزنة.

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب

٥٠

ركبتيه المرتعشتين كأنهما خرقتان من أطراف ثوبه البالي، ويلتفت جزعاً إلى كل ناحية، ومن نظراته الموجهة تنبعث خيالات البؤس والفقر والتعاسة.

فالتفت الأمير نحوه، وقال بلهجة الاشمنزاز: «وما ذنب هذا القذر الواقف كالبيت بين الأحياء؟»

فأجابه أحد الجنود قائلاً: «هو لص سارق قد دخل الدير ليلاً، فقبض عليه الرهبان الأتقياء ووجدوا طي أثوابه أنية مذابحهم المقدسة.»

فنظر إليه الأمير نظرة النسر الجائع إلى عصفور مكسور الجناحين، وصرخ قائلاً: «أنزلوه إلى أعماق الظلمة، وكبّلوه بالحديد وعند مجيء الفجر جرّوه إلى شجرة عالية واشنقوه بحبل من الكتّان، واتركوا جسده معلقاً بين الأرض والسماء، فتنثر العناصر

أرجعوا اللص إلى السجن والناس يهمسون بعضهم

٥١

في أذان بعض قائلين: «كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر على اختلاس آنية الدير المقدسة»

ونزل الأمير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء والمتشرعون، وسار الجند خلفه وأمامه وتبدد شمل المتفرجين وخلا ذلك المكان إلا من عويل المسجونين، وزفرات القانطين المتمائلة كالخيالات على الجدران.

جرى كل ذلك وأنا واقف هناك وقوف المرأة أمام الأشباح السائرة مفكرًا بالشرائع التي وضعها البشر للبشر، متأملًا بما يحسبه الناس عدلاً، متعمقًا بأسرار الحياة باحثًا عن معنى الكيان، حتى إذا ما تضعضت أفكارني مثلما تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان قائلاً لذاتي: الأعشاب تمتص عناصر التراب، والخروف يلتهم الأعشاب، والذئب يفترس الخروف، ووحيد القرن يقتل الذئب، والأسد يصيد وحيد القرن. والموت يُفني الأسد. فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل

٥٢

سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً؟ ... أتوجد قوة تحول جميع هذه الأسباب الكريهة إلى نتائج جميلة؟! أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة، وتضمها إلى ذاتها مبتسمة مثلما يرجع البحر جميع السواقي إلى أعماقه مترنماً؟ أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول والزانية وخليلها والسارق والمسروق منه أمام محكمة أسمى وأعلى من محكمة الأمير؟

٢

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة، وسرت بين الحقول حيث تبيع السكينة للنفس

ما تسره النفس، ويميت طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع الضيقة والمنازل المظلمة، ولما بلغت طرف الوادي التفث فإذا بأجواق كثيرة من العقبان والغربان والنسور تتطاير تارةً، وتهبط طورًا وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيرها وحفيف أجنحتها، فتقدمت قليلًا مستطلعًا، فرأيت أمامي جثة رجل معلقة على شجرة عالية، وجثة امرأة عارية مطروحة بين الحجارة التي رجمت بها، وجثة فتى غارقة بالدماء المجلجلة بالتراب، وقد فصل رأسها عنها.

٥٤

وقفت وهول المشهد يغشى بصيرتي بنقابٍ كثيفٍ مظلمٍ، ونظرت فلم أر سوى خيال الموت المربع منتصبًا بين الجثث الملطخة بالدماء، وأصغيت فلم أسمع غير عويل العدم ممزوجًا بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع البشر.

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالأمس على أحضان الحياة، فأصبحوا اليوم في قبضة الموت.

ثلاثة أساءوا بعُرفِ البشر إلى الناموس، فمدت الشريعة العمياء يدها، وسحقتهم بقساوة.

ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين؛ لأنهم ضعفاء فجعلتهم الشريعة أمواتًا لأنها قوية.

رجل فتك برجل آخر، فقال الناس: هذا قاتل ظالم، وعندما فتك به الأمير قال الناس: هذا أمير عادل.

ورجل حاول أن يسلب الديار، فقال الناس هذا لص شرير، وعندما سلبه الأمير حياته، قالوا هذا أمير فاضل.

٥٥

وامرأة خانت بعلمها، فقال الناس هي زانية عاهرة، ولكن عندما سيّر لها الأمير عارية ورجمها على رؤوس الأشهاد، قالوا هذا أمير شريف.

سفك الدماء محرّم، ولكن من حاله للأمير؟

سلب الأموال جريمة، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة؟

خيانة النساء قبيحة، ولكن من صيّر رجم الأجساد جميلاً؟

أنقابل الشرّ بشرّ أعظم ونقول هذه هي الشريعة، ونقاتل الفساد بفساد أعم، ونهتف هذا هو الناموس، ونغالب الجريمة بجريمة أكبر، ونصرخ هو العدل؟

أما صرع الأمير عدوّاً في غابر حياته؟ أما سلب مالا أو عقاراً من أحد تابعيه الضعفاء؟ أما راود امرأة جميلة عن نفسها؟ هل كان معصوماً عن هذه المحرمات، فجاز له إعدام القاتل وشنق السارق ورجم الزانية؟

٥٦

ومن هم الذين رفعوا هذا اللص على الشجرة؟ أملائكة نزلوا من السماء أم رجال يغتصبون ويسرقون كل ما تصل إليه أيديهم؟

ومن قطع رأس هذا القاتل؟ أنبياء هبطوا من العلاء أم جنود يقتلون ويسفكون الدماء أينما حلّوا؟

ومن رجم هذه الزانية؟ أنسك طاهرون أتوا من صوامعهم أم بشرّ يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل مختبئين بستانر الظلام؟

الشريعة، وما هي الشريعة؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر، وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة

بين الناس قائمين احرموا الضعفاء نور الحياة، وأفنوا الساقطين بحد السيف، ودوسوا الخطأ بأقدام من حديد.

وظلت هذه الأفكار تتزاحم على فكري وتتساهم

٥٧

عواطفي حتى سمعت وطء أقدام قريبة مني، فنظرت وإذا بصبية قد ظهرت من بين الأشجار، واقتربت من الجثث الثلاث متحذرة متلفتة بخوف إلى كل ناحية، حتى إذا ما رأت رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً، وركعت بجانبه وطوقته بزنديهما المرتجفتين، وأخذت تستفرغ الدموع من عينيها، وتلامس شعره الجعدي بأطراف أصابعها، وتنتحب بصوت عميق جارج خارج من صميم الكبد، ولما أنهكها البكاء وغلبتها الحسرات، أسرع تحفر التراب بيديها حتى إذا ما حفرت قبراً وسيماً، وجرت إليه الفتى المصروع، ومددته على مهل موجه، ووضعت رأسه المضرع بالدماء بين كتفيه وبعد أن غمرته بالتراب غرست نصل السيف الذي قطع عنقه على قبره، وإذا همّت بالانصراف تقدمت نحوها، فأجفلت وارتعشت خوفاً ثم أطرقت والدمع السخين يتساقط كالمطر من مقلتيها وقالت متنهدة: «اشكني إلى الأمير إن شئت فخير لي أن أموت والحق بمن خلصني

٥٨

من قبضة العار من أن أترك جسده طعاماً لقشاعم الطير والوحوش الكواسر.» فأجبتها قائلاً: «لا تخافي مني أيتها المسكينة. فأنا قد نذبت حظ فتاك قبلك بل خبريني كيف أنقذك من قبضة العار.»

فقال والغصص تقطع صوته: «جاء قائد الأمير إلى حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رأي نظري نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقل والدي الفقير يعجز الغني عن دفعها فقبض عليّ ليقنادني قهراً إلى صرح الأمير بدلا من الذهب فاسترحمته بدموعي فلم يحفل واستحلفته بشيخوخة والدي فلم يرحم

فصرخت مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي وخلصني من بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهمَّ أن يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلّقاً على الحائط وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي، ولكبر نفسه لم يفر هارباً كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة

٥٩

القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه إلى السجن مكبلاً بالقيود»

قالت هذا ونظرت إليّ نظرة تذيب الفؤاد وتثير الشجون وولّت مسرعة ورنات صواتها الموجعة تولد بين تموجات الأثير اهتزازاً وارتعاشاً.

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم سائراً وجهه بأثوابه حتى إذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف بقربها وخلع عباءته وستر بها أعضاءها العارية وأخذ يحفر الأرض بخنجر كان معه ثم حملها بهدوء وواراها التراب ساكباً مع كل حفنة قطرة من أجفانه. ولما انتهى من عمله جنى بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس منخفض الطرف. وإذا هم بالذهاب أوقفته قائلاً: « ما نسبة هذه المرأة الساقطة إليك حتى سعت مخالفاً إرادة الأمير ومخاطراً بحياتك لكي تحمي جسدها المروض من طيور السماء الجوارح »

٦٠

فنظر إليّ وأجفائه المقرحة من البكاء والسهر تتكلم عن شدة حزنه ولوعته وبصوت مخنوق ترافقه التنهيدات الأليمة قال: «أنا هو ذلك الرجل التعس الذي رُجِمَتْ من أجله، أحببتها وأحبّنتي مذ كُنَّا صغيرين نلعب بين المنازل. نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيّداً قوياً نخدمه بعواطف قلوبنا فيستميلنا إليه ونهايه بسرائر روحنا فيضمننا إلى صدره. ففي يوم وقد كنت غائبة عن المدينة زوّجها والدها كرهاً من رجل تكرهه ولما رجعت وسمعت بالخبر تحولت أيامي إلى ليل طويل حالك وصارت حياتي نزاعاً مرّاً متواصلاً. وبقيت أصارع عواطفِي وأغالب ميول نفسي حتى تغلبت عليّ وقادتني

مثلما يقود البصير ضريزاً أعمى. فذهبت إلى حبيبتى سراً وأقصى مرامي أن أرى نور عينيها وأسمع نغمة صوتها فوجدتها منفردة تندب حظها وترثي أيامها فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا، ولم تمر ساعة حتى دخل زوجها فجأة ولما رأيته أوعزت إليه نياته القذرة فقبض

٦١

على عنقها الأملس بكفيه القاسيتين وصرخ بأعلى صوته (تعالوا وانظروا الزانية وعشيقتها) فهرول الجيران ثم جاء الجند مستطلعين الخبر فأسلمها إلى أيديهم الخشنة فاقتادوها محلولة الشعر ممزقة الأثواب. أما أنا فلم يمسنى أحد بضرر لأن الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تعاقب المرأة إذا سقطت، أما الرجل فتسامحه.

وعاد الشاب نحو المدينة سائراً وجهه بأثوابه ولبثت أنا ناظراً متأملاً متنهداً وجثة اللص المشنوق ترتجف قليلاً كلما هزَّ الهواء أغصان الشجرة كأنها تسترحم بحراكها أرواح الفضاء لتتهبط وتمدها على صدر الأرض بجانب قتيل المروءة وشهيدة الحب.

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً باليةً ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكياً ثم تسلقت الشجرة وقضمت حبل الكتان بأسنانها فسقط الميت على الأرض سقوط الثوب البليل. فنزلت المرأة وحفرت قبراً

٦٢

بجانب القبرين ووضعت فيه: وبعد أن غمرته بالتراب أخذت قطعيتين من الخشب وصنعت منهما صليباً وغرسته فوق رأسه. ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها أوقفها قائلاً: «ما غرَّك أيتها المرأة فجئتِ تدفينين لصاً سارقاً»

فنظرت إليّ بعينين غارقتين مكحولتين بأشباح الكآبة والشقاء وقالت: «هو زوجي الصالح ورفيقي الحنون ووالد أطفالي. خمسة أطفال يتضورون جوعاً أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يُفطم ... لم يكن زوجي لصاً بل كان زارعاً يفلح أرض

الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان إلا على رغيغ نتقاسمه عند المساء ولا تبقى منه لقمة إلى الصباح ... مذ كان فتى وهو يسقي بعرق جبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساينه. ولما ضعف وانتهبت أعوام العمل قواه وراودت الأمراض جسده أبعدوه قائلين: (لم يعد الدير محتاجاً إليك فاذهب

٦٣

الآن وعندما يشب أبناءك ابعثهم إلينا لكي يأخذوا مكانك في الحقل) فبكى وأبكاني واسترحمهم باسم يسوع واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليّ وعلى صغارنا العراة الجائعين. فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لأن سكان تلك القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء. ثم جلس على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس إليه بل كانوا يمرون به قائلين: (الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني والكسل) ففي ليلة وقد برّح العَوَزُ بنا حتى صار أطفالنا يتلون جوّاً على التراب. والرضيع بينهم يمص ثديي ولا يجد لبناً. تغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام ودخل قبواً من أقبية الدير حيث يخزن الرهبان غلة الحقول وخمر الكروم وحمل زنببلاً من الدقيق على ظهره وهمّ بالرجوع إلينا. لكنه لم يَسِرْ بضع خطوات حتى استيقظ القسس من رقادهم وقبضوا عليه وأوسعوه ضرباً وشتماً وعندما جاء

٦٤

الصباح أسلموه إلى الجند قائلين: (هو لص شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية) فاقتاده الجند إلى السجن ثم إلى المشنقة ليملأوا أجواف العقبان من جسده لأنه حاول أن يملأ أجواف صفاره الجياع من فضلات الغلة التي جناها بأتعابه إذ كان خادماً للدير"

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع أشباح محزنة تتصاعد وتتسارع إلى كل ناحية كأنها أعمدة من الدخان يتلاعب بها الهواء.

وقفت بين القبور الثلاثة وقفة مؤبَّنٍ أُرْتَجَّ عليه وانعقد لسانه لوعة فانسكب دمه
متكلِّماً عن عواطفه. وحاولت التفكير والتأمل فعصتني نفسي لأن النفس كالزهرة تضم
أوراقها أمام الظلمة ولا تعطي أنفاسها لخيبالات الليل.

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ

٦٥

التظلم انبثاق الضباب من خلایا الأودية ويتموج حول مسامعي ليوحى إليَّ الكلام.
وقفت ساكناً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا أقرب إلى الآلهة منهم إلى كواسر
الغاب.

وقفت متنهِّداً ولو لامست شعلات تنهيداتي أشجار ذلك الحقل لتحركت وتركت
أماكنها وزحفت كتائب حاربت بقضبانها الأمير وجنوده وهدمت بجذوعها
جدران الدير على رؤوس رهبانه.

وقفت ناظراً ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة الحزن على جوانب تلك
القبور الجديدة: قبر فتى دافع بحياته عن شرف عذراء ضعيفة وأنقذها من بين أظافر
ذئب كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته، وقد أغمدت تلك الصبية سيفه بتراب قبره
ليبقى هناك رمزاً يتكلم أمام وجه الشمس عن مصير الرجولة في دولة الحيف
والغباوة. وقبر صبية لامس الحب نفسها قبل أن تغتصب المطامعُ جسدها فرجُمَتْ لأن
قلبها أبى إلا أن يكون أُميئاً حتى الموت. وقد

٦٦

وضع حبيبها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء

عن مصير النفوس التي يقدسها الحب بين قوم أعمتهم المادة وأخرسهم الجهل. وقبر فقيرٍ بائسٍ أوهت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان ليستعوضوا عنها بسواعد غيره، فطلب الخبز لصغاره بالعمل فلم يجده، ثم رجاه بالتسول فلم ينله، وعندما دفعه اليأس إلى استرجاع قليل من الغلة التي جمعها بأتعابه وعرق جبينه قبضوا عليه وفتكوا به، وقد وضعت أرملة صليبا على قبره ليستشهد في سكينة الليل نجوم السماء على ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري إلى سيوف يقطعون بها الرقاب ويمزقون بحدودها السنيينة أجساد المساكين والضعفاء.

وتوارت الشمس إذ ذاك وراء الشفق كأنها ملّت متاعب البشر وكرهت ظلمهم. وابتدأ المساء يحيك من خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة، فرفعت عينيّ إلى العلاء وبسطت يديّ نحو القبور وما عليها

٦٧

من الرموز وصرخت بأعلى صوتي «هذا هو سيفك أيتها الشجاعة فقد أغمد بالتراب، وهذه هي زهورك أيها الحب فقد لفحتها النيران. وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري فقد غمرته ظلمة الليل»

مضجع العروس

٦٨

مضجع العروس

(١)

(١) هذه حادثة جرت في شمال لبنان في النصف الأخير من الجيل التاسع عشر وقد أخبرتني بها سيدة فاضلة من تلك النواحي، تنتسب الى أحد أشخاص الحكاية.

٦٩

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنئون الفارحون وتتقدمهما الشموع والمصابيح، ويسير حولهما الفتیان المترنمون بالأهازيج والصبایا المنشدات أغاني السور.

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة والأواني المتلمعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان مقعدًا مرتفعًا وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية والكراسي المخملية حتى غُصت تلك القاعة الوسيعة بأشكال الناس. وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت رنات الكؤوس متألفة مع هتاف الغبطة، ثم جاء الموسيقيون وجلسوا يسكرون النفوس بأنفاسهم السحرية ويبطنون الصدور بألحانهم المنسوجة مع همس أوتار العود وتنهيدات الناس وحفيف الدفوف

٧٠

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق مقاطيع اللحن مثلما تتابع الأغصان اللينة مجاري هبوب النسيم، وتنثني طيات أثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء يداعبها

شعاع القمر، فشخصت إليهن الأبصار وسجدت لهن الرؤوس وعانقتهن أرواح الفتيان
وتفطرت لجمالهن مراثر الشيوخ، ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب ويغمرون
أميالهم بالخمور، فنمت الحركة وعلت الأصوات وسادت الحرية وتوارت الرزانة
وتضعضت الأدمغة وتلهَّبت النفوس واضطربت القلوب وأصبح ذلك المنزل بكل ما
فيه كقيثارة مقطعة الأوتار في يد جَنِيَّةٍ غير منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها
أنغامًا جامعة بين التناسق والالتباس، فهنا فتى يبوح بسرائر حبه لفتاة أولاها الجمال
تيهاً ودلالاً، وهناك شاب يستعد لمحادثة

٧١

حسناء مستحضراً إلى حافظته أعذب الألفاظ وأرق المعاني، وهناك كهل يجرع
الكأس وراء الكأس ويطلب بلجاجة إلى المنشدين إعادة أغنية ذكرته بأيام صباه،
في هذه القرنة امرأة تغامز بأطراف أجفانها رجلاً ينظر بمودة إلى سواها، وفي تلك
الزاوية سيدة قد بَيَّضَ الشيب مفرقها تنظر مبتسمة نحو الصبايا لتنتقي منهنَّ عروسة
لوحيدها، وبجانب تلك النافذة زوجة قد اتخذت سُكَّرَ حليها فرصة فاقتربت من
خليلها وجميعهم غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون إلى تيار الغبطة
والسرور متناسون حوادث الأمس منصرفون عن مآتي الغد منعكفون على استثمار
دقائق الحاضر.

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين كئيبتين إلى هذا المشهد مثلما
ينظر الأسير اليائس إلى

٧٢

جدران سجنه السوداء. وتتلفت بين الآونة والأخرى نحو زاوية من زوايا تلك القاعة
حيث جلس فتى في العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغبوطين انفراد الطائر
الجريح عن سربه، مكبلاً زنديه على صدره كأنه يحول بهما بين قلبه والفرار محدقاً
بشيء غير منظور في فضاء تلك القاعة كأن ذاته المعنوية قد انفصلت عن ذاته

انتصف الليل وتعاظمت غبطة الجماعة حتى صارت ثورة، واختمرت أدمغتهم حتى تلجلجت ألسنتهم، فقام العريس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقّة بين الناس.

في تلك الدقيقة أومأت العروس إلى صبية أن

٧٣

تقترب منها فاقتربت وجلست بجانبها وبعد أن تلفت العروس إلى كل ناحية تلفت جازع يريد أن يفشي سرّاً خفياً هائلاً لَزَّت إلى الصبية وهمست في أذنها هذه الكلمات بصوت مرتعش: «أستحلفك يا رفيقتي بالعواطف التي ضمت نفسينا مذ كنا صغيرتين، أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك في هذه الحياة، أستحلفك بمخبات صدرك، أستحلفك بالحب الذي يلامس أرواحنا ويجعلها شعاعاً، أستحلفك بأفراح قلبك وأوجاع قلبي أن تذهبي الآن إلى سليم وتطلبي إليه أن ينزل خفية إلى الحديقة وينتظرني هناك بين أشجار الصفصاف، تضرعي عني يا سوسان حتى يجيب طلبي، ذكره بالأيام الغابرة، توسلي إليه باسم الحب، قولي له هي تعسة عمياء، قولي هي مائتة تريد أن تفتح قلبها أمامك قبل أن يكتنفها الظلام

٧٤

قولي له هي هالكة شقية تريد أن ترى نور عينيك قبل أن تختطفها نار الجحيم، قولي له هي خاطئة تريد أن تعترف بذنوبها وتلتمس عفوك، أسرع إليّ وابتهلي عني أمامه ولا تخافي مراقبة هؤلاء الخنازير لأنّ الخمر قد سدّت أذانهم وأعمت بصائرهم»

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب سليم الكئيب المنفرد وحده وأخذت تستعطفه هامسة في أذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والإخلاص بادية على ملامحها وهو منحنى الرأس يسمع ولا يجيب بيّن شَفَقَةٍ، حتى إذا ما انتهت من كلامها نظرت إليها نظرة ظامي يرى الكأس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله آتياً من

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج إلى الحديقة

ولم تَفُضْ بضع دقائق حتى قامت العروس واتبعتة مختلسة خطواتها بين رجال
فتنتهم ابنة الكروم ونساء أشغلت قلوبهن صباة الفتیان. ولما بلغت الحديقة المَوْشَاةَ
بأثواب الليل أسرعَت ملتفتة إلى الوراء، ومثل غزال جازع هارب إلى كناسه من
الذئاب الخاطفة تقدمت نحو أشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى، ولما رأت
نفسها بجانبه ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها وأحدقت بعينه ثم قالت والألفاظ
تتسارع من شفتيها بسرعة الدموع من أجفانها: «اسمعني يا حبيبي، اسمعني جيداً، ها
قد ندمت على جهالتي وتسرعني، قد ندمت يا سليم حتى سحقت الندامة كبدي، أنا
أحبك ولا أحب سواك

وسوف أحبك إلى منتهى العمر، قد أخبروني بأنك سلوتني وهجرتني وتعلقت بهوى
غيري أخبروني بكل ذلك يا سليم وسمّموا قلبي بألسنتهم ومزقوا صدري بأظافره
وملأوا نفسي بكذبهم. قد أخبرتني نجيبة بأنك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبها، قد
ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريساً فرضيته يا
سليم ولا عريس لي سواك. والآن، والآن قد رُفِع الغشاء عن عيني فجئت إليك، قد
خرجت من هذا المنزل ولن أعود إليه، قد جئت لكي أضمك بذراعي ولا توجد قوة في
هذا العالم ترجعني إلى ذراعي الرجل الذي زففت إليه كرهاً ويأساً، قد تركت العريس
الذي اختاره لي الكذب بعلًا، وتركت الوالد الذي أقامه القدر وليًا، وتركت الزهور التي
ضفرها الكاهن

إكليلاً، وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً، قد تركت كل شيء في هذا المنزل
المملوء بالسُّكَّر والخلاعة وأتيت لأتبعك إلى أرض بعيدة، إلى أقاصي العالم، إلى

مكامن الجن، إلى قبضة الموت. تعال نسرع يا سليم من هذا المكان متسترين بوشاح الليل، هلم نسير إلى الساحل ونركب سفينة تحملنا إلى بلاد بعيدة مجهولة، تعال نمشي الآن فلا يجيء الفجر إلا ونحن في مأمن من أيدي العدو. انظر، انظر هذه الحلي الذهبية، وهذه القلائد والخواتم الثمينة، وهذه الجواهر النفيسة، فهي تكفل مستقبلنا وتكفي لنعيش بأثمانها كالأمراء، لماذا لا نتكلم يا سليم؟ لماذا لا ننظر إلي؟ لماذا لا تُقْبَلُنِي؟ أسمع أنت صراخ قلبي وعويل نفسي؟ ألا تصدق بأني هجرت عريسي وأبي وأمي وجئت بأثواب العرس لكي أهرب معك؟ تكلم أو

٧٨

هلم نسرع فهذه الدقائق أثمن من حبات الألماس وأعلى من تيجان الملوك»

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة أعذب من همس الحياة وأمر من عويل الموت وألطف من حفيف الأجنحة وأعرق من أنين الأمواج، نغمة تتموج نبضاتها بين اليأس والأمل، واللذة والألم، والفرح والشقاء، وكل ما في صدر المرأة من الميول والعواطف.

أما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع الحب والشرف، ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً، والظلام نوراً، وذلك الشرف الذي يقف أمام النفس، ويثنيها عن رغائبها ومنازعتها. ذلك الحب الذي ينزله الله على القلب، وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشر في الدماغ.

٧٩

وبعد أحيان خرساء هائلة شبيهة بالأجيال المظلمة التي تتمايل فيها الأمم بين النهوض والاضمحلال، رفع الشاب رأسه وقد تَغَلَّبَ شَرَفُ نَفْسِهِ على مَنِيَّهَا وحول عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء «ارجعي أيتها المرأة إلى ذراعي عريسك فقد قُضِيَ الأمر ومحت البقطة ما صَوَّرته الأحلام. أسرعي إلى أحضان المسرات قبل أن تراك أعين الرقباء فيقول الناس قد خانت عريسها في ليلة العرس

فارتعشت العروس لهذه الكلمات وتململت كزهرة ذابلة أمام الريح ثم قالت متوجعة:
«لا أعود إلى هذا المنزل وبني رمق من الحياة، قد خرجت منه إلى الأبد، قد تركته وكل
من فيه مثلما يترك الأسير أرض

٠٨

المنفى، فلا تبعدني عنك ولا تقل بأنني خائنة؛ لأن يد الحب الذي مزجت روحي
بروحك هي أقوى من يد الكاهن التي أسلمت جسدي إلى مشيئة العريس، ها قد
طوقت ذراعيّ حول عنقك فلا تحلها القوات وقربت نفسي إلى نفسك فلا يفرقهما
الموت»

فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلاً إظهار المقت والاشمئزاز: «ابتعدي
عني أيتها المرأة فقد سلوتك، نعم سلوتك وكرهتك وتعلقت بهوى غيرك، فلم يقل
الناس غير الصحيح. هل سمعت ماذا أقول؟ قد سلوتك حتى نسيت وجودك وكرهتك
حتى أبت نفسي مرآك فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي، وعودي إلى عريسك
وكوني له زوجة أمينة»

فقالَت الصبية متفجعة: «لا، لا أصدق كلامك فأنت

٨١

تحبني وقد قرأت معنى الحب في عينيك وشعرت بلامسه عندما لمست جسدك، أنت
تحبني وتحبني وتحبني مثلما أحبك فأنا لا أترك هذا المكان إلا بجانبك ولن أدخل هذا
المنزل وفي نفسي بقية من الإرادة، قد جئت لكي أتبعك إلى آخر الأرض فيسر أمامي
وارفع يدك وأهرق دمي»

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل: «اتركيني أيتها المرأة وإلا صرخت بأعلى
صوتي وجمعت في هذه الحديقة أولئك الناس المدعويين إلى أفراح عرسك وأريتهم
عارك وجعلتك مضغة مرة في أحناكهم ومثلاً قبيحاً على ألسنتهم وأوقفت نجيبة التي

أحبها قلبي تسخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك»

قال هذا وأمسك بذراعها ليبعدها عنه فتغيرت

٨٢

ملامحها وأبرقت عينها وتحولت بكليتها من الاستعطاف والرجاء والتوجع إلى الغضب والقساوة وصارت كلبوة فقدت أشبالها أو كبحر أثارت أعماقه الزوابع ثم صرخت (من هي التي تتمتع بحبك بعدي وأي قلب يسكر بِقَبْلِ شفّتيك غير قلبي!).

لفظت هذه الكلمات وانتشلت من بين أثوابها خنجرًا سنيئًا وأغمدته ب صدره بسرعة البرق، فهوى وسقط على الأرض كغصن قصفته العاصفة فانحنت فوقه والخنجر في يدها يقطر دمًا، ففتح عينيه المغمورتين بظل الموت وارتعشت شفّته وخرجت هذه الكلمات مع أنفاسه الضعيفة (اقتربي الآن يا حبيبتي اقتربي يا ليلي ولا تتركني، الحياة أضعف من الموت والموت أضعف من الحب، اسمعي اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك، اسمعي

٨٣

رنين كؤوسهم يا حبيبتي، لقد أنقذتني يا ليلي من قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكؤوس فدعيني أقبّل اليد التي كسرت قيودي، قَبْلِي شفّتي، قلبي شفّتي اللتين تكلفتنا الكذب وأخفتا أسرار قلبي، أغمضي أجفاني الذابلة بأصابعك المغموسة بدمي، وعندما تطير روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد انتحر يأسًا وحسدًا، قد أحببتك يا ليلي ولم أحب سواك ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي أفضل من الهرب بك في ليلة عرسك.. قبليني يا حبيبة نفسي قبل أن يرى الناس جثتي، قبليني.. قبليني.. يا ليلي)

ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه وفاضت روحه!

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت

٨٤

بصوت هائل (تعالوا، تعالوا أيها الناس، فهنا العرس وهذا العريس، هلموا لنريكم مضجعنا الناعم، استيقظوا أيها النيام وانتبهوا أيها السكارى وأسرعوا لنريكم أسرار الحب والموت والحياة)

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً كلماتها إلى آذان المحتفلين المغبوطين، فارتعشت أرواحهم، وأصغوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم، ثم تراكضوا مسرعين من أبواب المنزل ومخارجه وساروا ملتفتين يميناً وشمالاً حتى إذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية بقربها تراجعا مذعورين إلى الوراء ولا أحد منهم يجسر على استقصاء الخبر كأن منظر الدماء المنبثقة من صدر القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد ألسنتهم وأجمد الحياة في أجسادهم

٨٥

فالتفتت العروس إليهم وقد أثسخت ملامحها بهيبة محزنة وصرخت قائلة (اقتربوا أيها الجبناء ولا تخافوا خيال الموت فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم، اقتربوا ولا ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لا تلامس أجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة، انظروا هذا الفتى الجميل المتسربل بحلة العرس، هو حبيبي وقد قتلته لأنه حبيبي، هو عريسي وأنا عروسته وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً بتقاليدكم ومظلماً بجهالتكم وفاسداً بلهائكم ففضلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم. اقتربوا أيها الضعفاء الخائفون وانظروا لعلكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا وتسمعون صوته العذب منبثقاً من قلوبنا. أين هي تلك المرأة الخبيثة الحسودة التي وشت إليّ بحبيبي وقالت بأنه شغف بها وسلاني وتعلق بحبها لبشري. قد توهمت تلك الشريرة بأنها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس

نسيبها. أين نجبية المحتالة- أين تلك الأفعى الجهنمية- دعوها تقترب الآن وترى بأنها قد جمعتكم لتفرحوا بعرس حبيبي وليس بعرس الرجل الذي اختارته لي ... أنتم لا تفهمون كلامي، لأن اللجة لا تعي أغاني الكواكب. لكنكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها ليلة عرسها، سوف تذكروني وتلعنوني بشفاهكم الأثيمة، أما أحفادكم فسوف يباركونني لأن الغد سيكون للحق والروح. وأنت أيها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة ليصيرني له زوجة، أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة وتترقب خروج الماء من الصخرة وظهور الورد من القطرب، أنت رمز هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الأعمى إلى قائده الأعمى، أنت ممثل الرجولة الكاذبة التي تقطع الأعناق والمعاصم توصلاً إلى العقود والأساور، أنا أغتفر لك صغارتك لأن النفس الفارحة بذهابها من هذا العالم تغتفر

جميع زلات هذا العالم»

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ونظير ظامئ يقرب حافة الكأس إلى شفثيه أغمدته بعزم في صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد المنجل، فتململت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم وأغمي على بعضهن وتساعد ضجيج الرجال من كل ناحية واقتربوا من المصروعين بوجل وهيبة.

ف نظرت إليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء ينهل بغزارة من صدرها البلوري: «لا تقتربوا أيها العاذلون ولا تفصلوا بين جسدنا، وإن حاولتم فالروح الحائمة فوق رؤوسكم تقبض على أعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة، دعوا هذه الأرض الجائعة تلوك جسدنا لقمة واحدة، دعوها تخفيننا وتحميننا في صدرها مثلما تحمي البذور من ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع»

الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع أنفاسها الأخيرة «انظر يا حبيبي-انظر يا عريس نفسي كيف وقف الحساد حول مضجعنا- انظر عيونهم المحدقة بنا، واسمع صرير أسنانهم وتكسير ضلوعهم، قد انتظرتني طويلاً يا سليم فما أنذا. قد كسرت القيود وفككت السلاسل فلنسرعن نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل، ها قد أمحت الرسوم وانحجبت الأشياء فلم أعد أرى سواك يا حبيبي، ها شفتاي فاقتبل أنفاسي الأخيرة، هلم نذهب يا سليم فقد رفع الحب أجنته وسبح أماننا نحو دائرة النور»

وألقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت دماؤها بدمائه وأحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها محدقتين بعينه.

ولبت الناس صامتين هنيهة وقد اصفرّت وجوههم وتراخت ركا بهم كأن هيبة الموت قد سلبتهم القوة والحراك.

فتقدم إذ ذاك الكاهن الذي ضفر بتعاليمه أكاليل ذلك العرس وأشار بيمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم المذهولين وخاطبهم بصوت خشن قائلاً: «معلونة هي الأيدي التي تمد إلى هذين الجسدين الملطخين بدماء الجريمة والعار، وملعونة هي الأعين التي تذرف دموع الحزن على هالكين قد حملت الأبالة روحيهما إلى الجحيم، لتبقى جثة ابن سادوم وجثة ابنة عمورة مطروحتين على هذا التراب الدنس المجهول بدمائهما حتى تتقاسم لحرمانهما الكلاب وتذري عظامهما الرياح. اذهبوا إلى مساكنكم أيها الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتصاعدة من داخل قلوبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة، تفرقوا أيها الواقفون بقرب هاتين الجيفتين، وانصرفوا مُسرِعِينَ قبل أن تلسعكم ألسنة النار الجهنمية ومن يبق منكم ههنا يكن محروماً ومرذولاً فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه المؤمنون ولا يشترك بالصلاة التي يقدمها المسيحيون!»

فتقدمت سوسان، تلك الصبية التي بعثتها العروس رسولاً إلى حبيبها، ووقفت أمام الكاهن ونظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة «أنا أبقى هنا أيها الكافر الأعمى وأنا أحرسهما حتى يجيء الفجر وأنا أحفر لهما قبراً تحت هذه الأغصان المتدلية، فإن منعتني محفراً مزقت صدر الأرض بأصابعي، وإن ربطتم ساعدي حفرته بأسناني، أسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور واللبن فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية، واللصوص الخاطفة تهاب ربّ البيت وتخشى قدوم الصباح، أسرعوا إلى مضاجعكم المظلمة لأن أغاني الملائكة المتموجة فوق شهيدَي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة بالتراب»

وتفرق الناس من أمام وجه الكاهن العبوس ولبثت تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدتين كأنها أم رَقُوبٌ تحرس طفليها في سكينة الليل ولما توارى الجمع وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب.

خليل الكافر

خليل الكافر

-

١

-

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في شمال لبنان كالأمير بين الرعية، وكان منزله القائم بين أكوأخهم الحقيمة يشابه الجبار الواقف بين الأقزام. وكانت معيشتة ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز وأخلاقه مختلفة عن أخلاقهم باختلاف القوة عن الضعف.

إن تكلم الشيخ عباس بين أولئك الفلاحين أحنوا رؤوسهم إعجاباً كأن القوى العقلية قد انتدبته ممثلاً لها واتخذت لسانه ترجماناً عنها، وإن غضب ارتجفوا جزعاً وتبددوا من أمام وجهه مثلما تتراكم أوراق الخريف

٩٢

أمام الأرياح وإن صفع خدَّ رجل منهم ظل ذلك الرجل جامدًا صامتًا كأن الضربة قد أتت من السماء؛ فمن الكفر أن يتجاسر أو يرفع عينيه ليرى من أنزلها. وإن تبسم لرجل آخر قال الجميع ما أسعده فتى رضي عنه الشيخ عباس.

ولم يكن استسلام أولئك المساكين إلى الشيخ عباس وخوفهم قساوته صادريين عن ضعفهم وقوته فقط، بل كانا ناتجين عن فقرهم واحتياجهم إليه؛ لأن الحقول التي كانوا يحراثونها والأكوأخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد ورثها عن أبيه وجده مثلما

ورثوا الفقر والتعاسة من آبائهم وجدودهم، فكانوا يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها تحت مراقبته ولا يحصلون لقاء أتعابهم وجهادهم إلا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع، قد كان أكثرهم يحتاج الخبز قبل انقضاء أيام

٩٣

الشتاء الطويلة فيذهب إليه الواحد بعد الآخر ويتضرع أمامه باكيًا مستعطفًا لكي يقرضه دينارًا أو مكيالًا من الحنطة فكان الشيخ عباس يجيب سؤالهم مسرورًا لعلمه بأنه سيستوفي الدينار دينارين ومكيال الحنطة مكيالين عندما تجيء أيام البيارد والموسم. وهكذا كان يبقى أولئك التعساء مُثْقَلِينَ بديون الشيخ عباس مكبلين بحاجتهم إليه خائفين غضبه طالبين رضاه.

-

٢

-

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه وخلت الحقول والأودية إلا من الغربان الناعية والأشجار العارية، فلزم سكان تلك القرية أكوأخهم بعد أن أشبعوا أهراء الشيخ عباس من الغلة وملأوا آنيته من عصير الكروم وأصبحوا

٩٤

ولا عمل لهم يفنون الحياة بجانب المواعد متذكّرين مآتي الأجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات الأيام والليالي.

انقضى كانون الأول وقضى العام العجوز متنهّدًا أنفاسه الأخيرة في الفضاء الرمادي

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والأودية وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة العواصف تصفر وتتسارع ملعلة من أعالي الجبال نحو المنخفضات حاملة الثلوج لتخزنها في الوهاد فترتعش لهولها الأشجار وتتململ أمامها الأرض فمزجت الأرياح بين ما تساقط من الثلج في ذلك النهار والساقط منه في تلك الليلة حتى أصبحت الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء

٩٥

يكتب عليها الموت سطوًّا مبهمًا ثم يمحوها، وفصل الضباب بين القرى المنثورة على كتفي الوادي وتوارت الأنوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نواذ البيوت والأكواخ الحقيمة، وقبضت الرعدة على نفوس الفلاحين وانزوت البهائم بقرب المعالف واختبأت الكلاب في القراني ولم يبق سوى الريح تخطب وتضج على مسامع الكهوف والمغائر فيتصاعد صوتها الرهيب من أعماق الوادي تارة وطورًا ينقض من أعالي قمم الجبال، فكان الطبيعة قد غضبت لموت العام العجوز فقامت تأخذ بثأره من الحياة المختبئة في الأكواخ وتحاربها بالبرد القارس والزمهرير الشديد.

ففي هذه الليلة الهائلة وتحت هذا الجو الثائر كان فتى في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة

٩٦

بتدرج من دير قزحيا (١) إلى قرية الشيخ عباس وقد يبس البرد مفاصله وانتزع الجوع والخوف قواه وأخفت الثلوج ثوبه الأسود كأنها تريد أن تكفنه قبل أن تميته، فكان يخطو إلى الأمام والأرياح تصده وترجعه إلى الوراء كأنها أبت أن تراه في منازل الأحياء، وتنشبت الطريق الوعرة بأقدامه فيسقط ثم ينهك ثم يصرخ بأعلى صوته مستغيثًا ثم يخرسه البرد فيقف صامتًا مرتجفًا فكأنه العناصر المتحاربة كالأمل الضعيف بين اليأس الشديد والحزن العميق، أو كعصفور مكسور الجناحين سقط في النهر فحملة التيار الغضوب إلى الأعماق.

(١) وهو أغنى وأشهر دير في لبنان تقدر حاصلاته بألوف الدنانير يسكنه عشرات من الرهبان المعروفين بالبلديين، وقزحيا لفظة سريانية معناها «فردوس الحياة»

٩٧

وظل الشاب سائرًا والموت يتبعه حتى خارت قواه وانحطت عزيمته وتجمّدت الدماء في عروقه فارتدى على الثلوج وصرخ صوتًا هائلًا هو بقية الحياة في جسده صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه، صوت منازع قانط أتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي به إلى الهاوية، صوت محبة الكيان في فضاء العدم.

-

٣

-

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سنيها، هذه المرأة هي أرملة سمعان الرامي الذي وُجدَ قتيلاً في البرِّيَّة منذ خمسة أعوام ولم يُعرَف قاتله بعد.

4

٩٨

كانت راحيل مثل جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والفناء، فكانت تخرج أيام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل وفي أيام الخريف كانت تجمع فضلات الأثمار المنسية في البساتين وفي الشتاء كانت تغزل الصوف وتخيظ الأثواب لقاء دريهمات قليلة أو مكيال من الذرة، وكانت جميع أعمالها مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء، أما ابنتها مريم فكانت صبية جميلة هادئة تشاطر

والدتها الأتعاب وتساهمها أعمال البيت.

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل وابنتها جالستين بقرب موقد قد تَغَلَّبَ البرد على حرارته واكتنف الرماد جمره، وفوق رأسيهما سراج ضعيف يبعث أشعته الصفراء الضئيلة إلى قلب الظلمة مثلما تبعث

٩٩

الصلاة أشباح التعزية إلى كبد الفقير الحزين.

انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة الأرياح خارجًا ومن وقت إلى آخر كانت الصبية تقف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم تعود إلى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر.

في تلك الدقيقة تَحَرَّكَتِ الصبية فجأة كأنها استيقظت من سبات نوم عميق والتفتت بوجل نحو أمها وقالت بسرعة «هل سمعتِ يا أماه، هل سمعت صوت صارخ مستغيث»

فرفعت الوالدة رأسها وأصغت هنيهة ثم أجابت: «لا لم أسمع سوى عويل الأرياح يا ابنتي»

فقالت الصبية «أنا قد سمعت صوتًا أعمق من هزيم الرياح وأمر من عويل العاصفة»

١٠١

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة وأصغت دقيقة ثم قالت «قد سمعت الصراخ ثانية يا أماه»

فأجابت الأم وقد أسرعرت مرتاعة نحو النافذة (وأنا قد سمعت أيضًا ... تعالني نفتح

الباب وننظر ... أوَصِدِي النافذة كي لا تطفئ الريح السراج)

قالت هذا والتفت برداءٍ طويل وفتحت الباب وخرجت بقدم ثابتة وبقيت مريم واقفة في الباب والهواء يتلاعب بجدرانل شعرها.

مشى راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم وقفت ونادت (من الصارخ = أين المستغيث) فلم يجبها أحد ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة وإذ لم تسمع غير صراخ الزوبعة تقدمت إلى الأمام بشجاعة ملتفتة إلى كل ناحية حاجبة وجهها من تموجات الريح العنيفة، ولم تسر

١٠١

رمية سهم حتى رأت أثر أقدام غارقة في الثلج قد أوشكت الأرياح أن تمحوها فاتبعها بسرعة جازع مترقب وبعد هنيهة نظرت فرأت أمامها جسداً مطروحاً على الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض، فتقدمت وذرت الثلج عنه وأسندت رأسه على ركبتيها ووضعت يدها على صدره وإذ شعرت بنبضات قلبه المتهاونة التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة (هلمي يا مريم هلمي إلى معونتي فقد وجدته)

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر أقدام والدتها مرتعشة من البرد والخوف حتى إذا ما بلغت المكان ورأت الشاب الملقى بلا حراك على الثلج تأوّهت وصرخت بلهفة وتوجع، فقالت الأم وقد وضعت يديها تحت إبطيه (هو حي فلا تخافي بل أمسكي بأطراف أثوابه وتعالني نحمله

١٠٢

إلى البيت)

حملت المرأتان الفتى والأرياح الشديدة تصدهما والثلوج تتمسك بأقدامهما حتى إذا ما بلغت به الكوخ ألقاه بجانب الموقد وأخذت الأم تفرك أعضائه المتجلدة والابنة

تجفف بأطراف ثوبها شعره البليل وأصابه الباردة، فلم تمر بضع دقائق حتى عادت إليه الحياة فتحرك قليلاً وارتعشت أجفانه وتهدت تنهيدة عميقة بثت الأمل بنجاته في قلبي المرأتين الشفوقيتين، فقالت مريم بعد أن حلت سيور حذائه المهشم وخلعت عباءته البليلة (انظري يا أماه انظري ملابسه فهي شبيهة بأثواب الرهبان) فالتفت راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان البابسة وقالت مستغربة (إن الرهبان لا يخرجون من الدير في مثل هذه الليلة المخيفة فأى شيء يا ترى جعل هذا

١٠٣

المسكين يخاطر بحياته؟)

فقالت الصبية مستدركة (ولكن هو أمرد يا أماه وللرهبان لحى كثيفة) فنظرت إليه الوالدة وقد انسكبت الرأفة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة (جففي قدميه جيداً يا ابنتي راهباً كان أم مجرماً)

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية وأخرجت منها جرة صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها في إناء من الفخار ثم قالت لابنتها (أسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من الخمر فينتعش وتعود الحرارة إلى جسده)

قربت راحيل حافة الطاس إلى شفتي الشاب وجرعته قليلاً ففتح عينيه الكبيرتين ونظر إلى منقذيه لأول مرة نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة الجميل = نظرة من شعر بلامس الحياة بعد أن كان بين

١٠٤

مخالب الموت- نظرة الأمل بعد اليأس. ثم ألوى عنقه وخرجت هذه الكلمات من بين شفتيه المرتعشتين (ليبارككما الله)

فقالت راحيل وقد وضعت يدها على كتفه (لا تزعج نفسك بالكلام يا أخي بل ابْقْ

صامتًا حتى تعود إليك القوة)

وقالت مريم (اتكى يا أخي إلى هذا المسند واقترب قليلاً من الموقد)

فاتكأ الشاب متنهدًا وبعد دقيقة ملأت راحيل الطاس خمراً وسقته ثانية ثم التفتت نحو ابنتها وقالت (ضعي جبته بقرب النار لتجف) ففعلت مريم ثم جلست تنظر إليه بحنو وشفقة كأنها تريد أن تثبت بنظراتها الحرارة والقوة في جسده النحيل.

١٠٥

وأحضرت راحيل إذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست بجانبه تطعمه بيدها لقماً صغيرة مثلما تفعل الأم وطفلها، حتى إذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط استوى جالساً على البساط فانعكست أشعة النار الوردية على وجهه المصفر، وتلمعت عيناه الحزبتان ثم قال هارًا رأسه بهدوء (الرحمة والقساوة تتصارعان في القلب البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة، ولكن سوف تتغلب الرحمة على القساوة لأنها إلهية وسوف تمر مخاوف هذه الليلة بمجيء النهار) وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد لا يُسمع (يد بشرية دفعتني إلى الهوان ويد بشرية خلصتني فما أشد قساوة الإنسان وما أكثر رأفته)

١٠٦

فقالت راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفة الأمومة بعذوبة الطمأنينة (كيف تجرأت يا أخي وتركت الدير في هذه الليلة التي تخافها الذئاب وتنزوي بالكهوف وتهابها العقبان فتختبئ بين الصخور؟)

فأغمض الشاب عينيه كأنه يريد أن يعيد بأجفانه الدموع إلى أعماق قلبه ثم قال (لثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه) فقالت راحيل هكذا قال يسوع الناصري عن نفسه عندما طلب إليه أحد الكتبة أن

يتبعه إلى حيث يذهب.

فأجاب الشاب وهكذا يقول كل من يريد أن يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء والفساد.

١٠٧

فسكتت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء من التردد. ولكن في الدير غرف عديدة رحبة، وخزائن طافحة بالذهب والفضة، وأقبية مملوءة بالغلة والخمور، وزرائب غاصّة بالعجول والكبوش المسممة، فأمر جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه الليلة؟»

فقال الشاب متنهّداً. قد تركت جميع هذه الأشياء وخرجت كرهاً من الدير.

فقالت راحيل (إن الراهب في الدير نظير الجندي في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني صامتاً ويأمره فيطيع مسرعاً، وقد سمعت بأن الرجل لا يصير راهباً إلا إذا نزع عنه الإرادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس، ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مروءوسيه فوق طاقتهم

١٠٨

فكيف يطلب منك رئيس دير قزحياً أن تسلم حياتك إلى العواصف والثلوج؟)

فأجاب الشاب «إن الرجل لا يصير راهباً في عرف رئيسه إلا إذا كان مثل آلة عمياء خرساء فاقدة الحس والقوة، أما أنا فقد خرجت من الدير لأنني لست آلة عمياء بل إنساناً يرى ويسمع.»

فأحدقت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه سرّاً خفياً يريد كتمانته، وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة «أيخرج الإنسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة التي

تعمي العيون وتصم الأذان؟»

فتنهذ الشاب وأحنى رأسه على صدره وقال بصوت عميق: «خرجت مطرودًا من الدير»

فقالت راحيل بدهشة: «مطرودًا؟!»

١٠٩

وردت مريم هذه الكلمة متأوهة.

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على إظهاره الحقيقة للمرأتين وخاف أن تتحول رأفتها عليه إلى استياء واستهجان، ولكنه نظر فرأى في عينيها أشعة الشفقة متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق: «نعم خرجت مطرودًا من الدير لأنني لم أستطع أن أحفر قبري بيدي لأن قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب والرياء؛ لأن نفسي أبت أن تتنعم بأموال الفقراء والمساكين، لأن روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات الشعب المستسلم إلى الغباوة. خرجت مطرودًا لأن جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها سكان الأكواخ؛ لأن خوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون بدموع اليتيم والأرملة، لأن لساني لم يعد يتحرك بالصلاة

١١٠

التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين والبسطاء. خرجت مطرودًا كالأبرص القذر؛ لأنني رددت على مسامع القسس والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسسًا ورهبانًا»

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين إليه مستغربتين كلامه محدقتين بوجهه الجميل الحزين متلفتتين بين الآونة والأخرى إلى بعضهما كأنهما تتساءلان بالسكينة عن الأسباب الغريبة التي جاءت به إليهما، حتى إذا ما نمت محبة الاستقصاء في قلب

فأجاب الشاب والغصات الموجعة تقطع ألفاظه: ليس لي أب ولا أم ولا أخت ولا مسقط رأس.

فتنهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو

١١١

الحائط لتخفي دمعة محرقة استقطرتها الشفقة من أجفانها، فنظر إليهما الشاب نظرة المغلوب إلى منجده وقد انتعشت نفسه برقة عواطفهما مثلما تنتعش الزهرة النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى في قلبها، ثم رفع رأسه وقال مات أبي وأمي قبل أن أبلغ السابعة من عمري فأخذني كاهن القرية التي وُلِدْتُ فيها إلى دير قزحيا، فسُرَّ الرهبان بي وجعلوني راعيًا للبقر ولما بلغت الخامسة عشرة ألبسوني هذا الثوب الأسود والخشن وأوقفوني أمام المذبح قائلين أَقْسِمُ بالله وقديسيه بأنك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة. فرددت كلامهم قبل أن أفهم مفاد كلامهم، وقبل أن أدرك معاني الفقر والطاعة والعفاف، وقبل أن أرى السبيل الضيقة التي سيُروني عليها. كان اسمي خليلًا فصار الرهبان منذ ذلك

١١٢

الحين يدعوني الأخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ لهم، كانوا يتنعمون باللحوم والمأكّل الشهية ويطعمونني الخبز اليابس والبقول المجففة ويتلذذون بالخمور والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجًا بالدموع، ويتضجعون على الأسرة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير فكنت أقول في نفسي: متى أصبح راهبًا يا ترى فأشارك هؤلاء السعداء بغبطتهم، وأصبح خليلًا بملذاتهم ومسرّاتهم فلا تقطع قلبي رائحة الطعام، ولا تعذب كبدي ألوان الخمور، ولا ترتعش روحي لصوت الرئيس. ولكن باطلًا كنت أتمنى وأحلم لأنني بقيت أرعى البقر في البرّيّة وأنقل الحجارة الثقيلة على ظهري وأحفر التراب بساعدي، بقيت أفعّل كل ذلك لبقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيق لأنني لم أكن أعلم بأنه يوجد

مكان غير الدير يمكن أن أعيش فيه لأنهم علّموني الكفر بكل شيء إلا معيشتهم،
وسمّموا نفسي بنقيع اليأس والاستسلام حتى ظننت بأن هذا العالم هو بحر أحزان
وشقاء وأن الدير هو ميناء الخلاص.

واستوى خليل جالسًا وانبسّطت ملامحه المنقبضة، ونظر كأنه رأى شيئًا جميلًا منتصبًا
أمامه في ذلك الكوخ. أمّا راحيل ومريم فلبثتا صامتتين محدقتين به وبعد هنيهة عاد
فقال: إن السماء التي شئت فأخذت والدي وفتنتي يتيمًا إلى الدير لم تشأ أن أصرف
العمر كله كالأعمى السائر في المعابر الخطرة، ولم ترض بأن أكون عبدًا تعسًا متصاغرًا
إلى نهاية الحياة، ففتحت عيني وأذني وأرتني النور مشعشعًا وأسمعتني الحقيقة
متكلمة.

فهزت راحيل رأسها إذا ذاك وقالت: أ يوجد نور

غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس، وهل بإمكان البشر أن يعرفوا
الحقيقة؟

فأجاب خليل قائلًا: النور الحقيقي هو ذاك الذي ينبثق من داخل الإنسان، ويبين سرائر
النفس للنفس ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح، أما الحقيقة فهي كالنجوم
لا تبدو إلا من وراء ظلمة الليل. الحقيقة هي مثل جميع الأشياء الجميلة في هذا العالم
لا تظهر مفاعليها المستحبة إلا لمن شعر بتأثيرات البطل القاسية، الحقيقة هي تلك
العاطفة الخفية التي تعلمنا أن نفرح بأيامنا وتجعلنا نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع
الناس.

فقال راحيل: «كثّار هم الذين يعيشون حسب العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم،

الله للإنسان. ولكنهم لا يفرحون قط بأيامهم بل يظلون تعساء حتى الموت.

فأجابها خليل قائلاً: باطلة هي الاعتقادات والتعاليم التي تجعل الإنسان تعساً في حياته، وكذابة هي العواطف التي تقوده إلى اليأس والحزن والشقاء؛ لأن واجب الإنسان أن يكون سعيداً على الأرض وأن يعلم سبل السعادة ويكرز باسمها أينما كان، ومن لا يشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية؛ لأننا لم نجئ هذا العالم كالمنفيين المرزولين بل جئنا كأطفال الأغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة وأسرارها عبادة الروح الكلي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا. هذه هي الحقيقة التي عرفتتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير

ومن فيه كهوة مظلمة تنبعث من أعماقها الأشباح المخيفة لتميتني، هذا هو السر الخفي الذي أعلنه البريَّة الجميلة لنفسي عندما كنت أجلس جائعاً باكياً متأوِّهاً في ظل الأشجار؛ ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الخمرة السماوية تشجعت ووقفت بين الرهبان إذ كانوا جالسين في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة وأخذت أبين لهم أفكارِي وأتلو على مسامعهم آيات الكتاب التي تبين ضلالهم وكفرهم. قلت لهم (لماذا نصرف الأيام في هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين مستطيين الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع أجفانهم متلذذين بغلة الأرض المسلوبة منهم- لماذا نعيش في ظلال التواني والكسل مبتعدين عن الشعب المحتاج إلى المعرفة حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدا إن يسوع

الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب فأَي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف. لماذا تبتعدون عن البشر وقد خلقكم الله بشراً؟ إذا كنتم أفضل من الناس

السائرين في موكب الحياة فعليكم أن تذهبوا إليهم وتعلموهم وإن كانوا أفضل منكم فامتزجوا بهم وتعلموا. كيف تنذرون الفقر وتعيشون كالأمراء وتنذرون الطاعة وتمتدرون على الإنجيل وتنذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات... أنتم تتظاهرون بقتل أجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير نفوسكم، وتتظاهرون بالترفع عن العالميات وأنتم أكثر الناس طمعًا. وتتظاهرون بالتَّسْكُ والتَّقَشُّفِ وأنتم كالبهائم المشغولة عن المعرفة بطبيب المرعى. تعالوا نعيد أراضي الدير الوسيعة إلى سكان هذه القرى المحتاجين ونرجع إلى جيوبهم الأموال التي أخذناها منهم، تعالوا نتفرق إلى

١١٨

كل ناحية مثلما تتفرق أسراب الطيور فنخدم الشعب الضعيف الذي جعلنا أقوياء، ونصلح البلاد التي نعيش بخيراتها، ونعلم هذه الأمة التّعسة أن تبتسم لنور الشمس وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية؛ لأن المتاعب التي نجدها بين الناس هي أجمل وأجمل من الراحة التي نستسلم إليها في هذا المكان، والرأفة التي نلامس بها قلب القريب هي أسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير، وكلمة التعزية التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة الطويلة التي نردها في الهيكل)

وسكت خليل دقيقة مسترجعًا أنفاسه ثم رفع عينيه نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ

كنت أتكلم بهذه الأشياء وما يشابهها أمام الرهبان

١١٩

وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم كأنهم لم يصدقوا بأن فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم متجاسرًا بمثل هذا الكلام حتى إذا ما انتهت اقترب أحدهم وقال صارفًا أسنانه (أتتجرأ أيها الضعيف وتتلطف أمامنا بمثل هذا الكلام) واقترب آخر وقال ضاحكًا مستهزئًا (هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها كل أيام

حياتك) وجاء آخر وقال متوعداً(سوف ترى ما يحل بك أيها الخبيث الكافر) ثم تفرقوا عني إلى كل ناحية مثلما يبتعد الأصحاء عن الأبرص، وذهب بعضهم وشكوني إلى الرئيس فاستدعاني عند غروب الشمس وبعد أن وبخني بقساوة على مسمع من الرهبان المبتهجين أمر بجلدي فجلدت بسياط من المرس، ثم حكم بسجني شهراً كاملاً، فاقادني الرهبان متقهقهين فرحين إلى غرفة رطبة مظلمة ... انقضى الشهر وأنا مطروح في ذلك القبر لا أرى النور ولا أشعر بغير دبيب الحشرات ولا ألمس سوى التراب ولا أعرف نهاية الليل من بدء النهار ولا أسمع سوى

١٢٠

وطء أقدام أحد الرهبان عندما يجيء ويضع بقربي كسرة من الخبز اليابس العطن وطاساً من الماء الممزوج بالخل، ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول جسدي واصفرار وجهي توهّموا بأن أميال نفسي قد ماتت في داخلي وأنهم بالجوع والعطش والعذاب قد قتلوا العاطفة التي أحياها الله في قلبي ... مرت الأيام أثر الليالي وأنا أجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما يجعل أولئك الرهبان يرون النور ويسمعون نغمة الحياة، ولكن باطلاً كنت أفكر وأفكر، لأن الغشاء الكثيف الذي حاكته الأجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الأيام القليلة، والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجّرت فلا تزيلها ملامس الأصابع الناعمة»

وبعد سكيئة مملوءة بالتنهدات رفعت مريم رأسها والتفتت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ثم نظرت بكآبة نحو خليل وسألته قائلة: «هل عدت وتكلمت ثانية

١٢١

أمام الرهبان فطرردوك من الدير في هذه الليلة المخفية التي تعلم الإنسان أن يكون رؤوفاً ورفوقاً حتى بأعدائه؟

فقال الشاب «في هذا المساء عندما تعاظم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد

الحوادث والحكايات المضحكة وفتحت الإنجيل متأملًا بتلك الأقوال التي تستميل النفس وتنسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر، ولما رآني الرهبان بعيدًا عنهم اتخذوا انفرادي سببًا للسخرية بي، فجاء بعضهم ووقفوا بقربي وأخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين، فلم أحفل بهم بل أطبقت الكتاب وبقيت ناظرًا من النافذة، فتململوا لذاك غيظًا ونظروا إليّ شزرًا لأن سكوتي قد أيبس عواطفهم ثم قال أحدهم ساخرًا (ماذا تقرأ أيها المصلح العظيم) فلم أرفع عيني نحو المتكلم بل فتحت الإنجيل وقرأت منه بصوت عالٍ هذه الآية (وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا أولاد

١٢٢

الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون في نفوسكم إن لنا إبراهيم أبا لأنني أقول: لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تعطي ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقي في النار. وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا) عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها يوحنا المعمدان سكت الرهبان دقيقة كأن يدًا خفية قد قبضت على أرواحهم ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين ثم قال أحدهم (قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا نحتاج لرعاة البقر أن يرددوه على مسامعنا) فقلت (لو كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه القرى المغمورة بالثلوج يتأففون بردًا ويتضورون جوعًا وأنتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير كرومهم وتأكلون لحوم مواشيهم).. لم تخرج هذه الألفاظ من

١٢٣

بين شفتيّ حتى صفعني أحد الرهبان على وجهي كأنني لم أتكلم بغير الحماقة، ثم رفسني آخر برجله وآخر انتزع الكتاب من يدي، وآخر نادى الرئيس فجاء مسرعًا وإذ أخبروه بما جرى تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف غضبًا وصرخ بأعلى صوته (اقبضوا على هذا الشرير المتمرد وجروه بعيدًا عن الدير، ودعوا العناصر الغضوبة

تعلّمه الطاعة، أخرجوه إلى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة مشيئة الله، ثم اغسلوا
أفكم خوفاً من سموم الكفر المتعلقة بأثوابه وإن عاد متضرعاً متظاهراً بالتوبة فلا
تفتحوا له الأبواب؛ لأن الأفعى إذا سجت في القفص لا تنقلب حمامة والعليقة إذا
غرست في الكرم لا تثمر تيناً)..

حينئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف إلى خارج الدير وعادوا ضاحكين وقبل أن
يوصدوا الأبواب سمعت أحدهم يقول ساخراً (كُنْتُ بالأمس ملكاً وكانت رعيتك البقر
والخنازير، وقد خلعتك اليوم أيها المصلح لأنك أسأت السياسة فاذهب الآن وكن ملكاً
على الذئاب الجائعة

١٢٤

والغربان المتطايّرة وعلمها كيف يجب أن تعيش في كهوفها وأوجرتها)

وتنهّد خليل تنهيدة عميقة ثم حوّل وجهه ونظر إلى النار المتأججة في الموقد،
وبصوت جارج بحلاوته قال (هكذا طردت من الدير، وهكذا سلمني الرهبان إلى يد
الموت فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري والأرواح الشديدة تمرّق أثوابي
والثلوج المتراكمة تتمسك بركابي حتى وَهَنْت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ
يائس شعر بأنه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف والأودية المظلمة، ولكن من
وراء الثلوج والأرياح، من وراء الظلمة والغيوم، من وراء الأثير والكواكب ومن وراء
كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت صراخي وندائي فلم تشأ أن أموت
قبل أن أعلم ما بقي من سرائر الحياة فبعثتكما إليّ لكي تسترجعاني من أعماق
الهاوية والعدم)

١٢٥

وسكت الشاب والامرأتان تنظران إليه بانعطاف وإعجاب وشفقة كأن نفسيهما قد
فهمتا خفايا نفسه واشتركتا معها بالشعور والمعرفة، وبعد هنيهة مدت راحيل يدها
أسر إرادتها ولمست يده بلطف وقالت والدموع تتلمع في عينيها: ان من تختاره

السماء نصيرًا للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والعواصف.

وهمست مريم قائلة: إن العواصف والثلوج تُفني الزهور ولكنها لا تميت بذورها

فقال خليل وقد أنارت التعزية وَجْهَهُ الْمُصْفَرُّ مثلما تنير أشعة الفجر خطوط الأفق إن كنتما لا تحسباني متمرّدًا وكافرًا كما يحسبني الرهبان يكون الاضطهاد الذي لقيته في الدير رمزًا للشدة التي تعانيتها الأمة قبل بلوغها المعرفة، وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة بالثورات التي تتقدم الحرية والمساواة لأن من قلب

١٢٦

الامراة الحساس تنبثق سعادة البشر ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد عواطف نفوسهم.

قال هذا وأتّكأ على الوسادة فلم تشأ الامراتان متابعة الحديث لأنهما عرفتتا من نظراته بأن النعاس المتولد من الراحة والاستدفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه.

ولم تمر بضع دقائق حتى أغمض خليل أجفانه ونام كالطفل المستأن على ذراعي أمه، فقامت راحيل بهدوء واتبعتها مريم وجلستا على فراشهما تنظران إليه كأن في وجهه الذابل جاذبًا يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما، ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت: في عينيه المطبقتين قوة غريبة تتكلم بالسكينة وتنبه أُميال النفس.

وقالت الابنة: يداها يا أماه مثل يدي صورة يسوع الموجودة في الكنيسة.

فهمست الوالدة: «على وجهه الكئيب ظاهرة رقة

١٢٧

وحملت أجنحة الكرى روعي الامراتين إلى عالم الأحلام وخمدت النار في الموقد وتحولت إلى رماد، ثم جف زيت السراج فشح نوره ببطء ثم انطفأ، وظلت العاصفة الغضوبة تضج خارجًا والجو القاتم ينثر رقع الثلوج والأرياح العنيفة تقذفها يمينًا وشمالًا.

-

٤

-

مضى أسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد بالغيوم يسكن حينًا ثم يثور متهيجًا غامرًا الأودية بالضباب مكفئًا الطلول بالثلوج، وقد همَّ خليل ثلاث مرات أن يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده بلطف وانعطاف قائلة

١٢٨

لا تسلم حياتك ثانيةً إلى العناصر العمياء بل ابقِ ههنا يا أخي فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة، والنار في هذا الموقد تظل متقدة بعد ذهابك مثلما كانت قبله، نحن فقراء يا أخي ولكننا نحيا أمام وجه الشمس مثل جميع الناس لأن الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا.

أما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه بتنهداتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب لأنها منذ دخوله بين حي وميت ذلك البيت الحقيق شعرت بوجود قوة علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع إلى قلبها وتنبه عواطف جديدة مستحبة في قدس من أقداس روحها؛ لأنها شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي تجعل قلب الصبية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات الندى وتسكب دقائق العطر.

تلك العاطفة الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية وتملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية وتجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء ولياليها مثل الأنبياء، ولا يوجد بين أسرار الطبيعة سر أقوى وأجمل من ذلك الميل الذي يحول سكينه نفس العذراء إلى حراك مستمر يميّت بعزمه ذكرى الأيام الغابرة ويحيي بحلاوته الآمال بالأيام الآتية.

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الأمم بقوة عواطفها ورقة إحساسها لأن التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها من النمو وتوقف مداركها عن الارتقاء تحول نفسها إلى استفسار ميول نفسها، وتشغل قلبها باستطلاع خفايا قلبها، الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الأرض بين المنخفضات فلا يجد ممراً ليسير به نهراً نحو البحر فينقلب بحيرة هادئة تنعكس على وجهها أشعة القمر

•

والنجوم.

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه، وعرف بأن الشعلة المقدسة التي أحاطت بقلبه قد لامست قلبها؛ ففرح لأول وهلة فرح طفل ضائع وجد أمه ولكنه عاد فلام نفسه على تسرعها وانشغافها ظناً منه بأن هذا التفاهم الروحي سيضمحل كالضباب عندما تفصله الأيام عن تلك القرية فكان يناجي نفسه قائلاً: «ما هذه الأسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون؟ وما هذه النواميس التي تُسيرنا تارة على سبل وعرة فنسير منقادين، وتوقفنا طورا أمام وجه الشمس فنقف فرحين، وتبلغنا مرة قمة الجبل فنبتسم مهللين وتهبط بنا أخرى إلى أعماق الوادي فنصرخ متوجعين؟ ما هذه الحياة التي تعانقنا يوماً كالحبيب ويومًا تضعفنا كالعدو؟ ألم أكن بالأمس مُكرّها

العذاب والسخرية من أجل هذه الحقيقة التي أيقظتها السماء في صدري. أَوَلَمْ أَقُلْ
للرهبان بأن السعادة هي مشيئة الله في الإنسان؟ إذا ما هذا الخوف، ولماذا أغمض
عيني وأحول وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه الصبية؟ أنا مطرود وهي فقيرة
ولكن أبا الخبز وحده يحيا الإنسان؟ أوليست الحياة دينا ووفاء؟ أولسنا بين العوز
واليسر كالأشجار بين الشتاء والصيف؟ ولكن ماذا تقول راحيل إذا علمت بأن روح
الفتى المطرود من الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة واقتربتا من
دائرة النور الأعلى؟ وماذا تفعل يا ترى إذا مادرت بأن الشاب الذي خلصته من مخالب
الموت يريد أن يكون رفيقا لابنتها؟ وماذا يقول سكان هذه القرية البسطاء إذا ما
علموا بأن فتى ربّي في الدير وخرج منه مطرودا فجاء قريتهم لكي يعيش بقرب
صبية جميلة؟

أفلا يغلقون آذانهم إذا ما قلت لهم بأن الذي يغادر الدير ليعيش بينهم يكون كالطائر
الذي يخرج من ظلمة القفص إلى النور والحرية؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش
بين هؤلاء الفلاحين المساكين كالأمير بين العبيد إذا ما سمع حكايتي؟ وماذا يفعل
كاهن القرية إذا ما ردّدوا على مسامعه تلك الأقوال التي سببت طردى من الدير؟»

كان خليل يناجي نفسه وهو جالس بقرب الموقد يتأمل بألسنة النار الشبيهة بعواطفه،
أما مريم فكانت تختلس النظرات إليه وتقرأ أحلامه في ملامح وجهه وتسمع صدى
أفكاره خارجا من صدرها وتشعر بخيالات هواجسه متميلة حول قلبها.

ففي عشية يوم وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلة نحو الوادي، حيث الأشجار
والصخور الملتحفة بالثلوج التحاف الأموات بالأكفان، جاءت مريم ووقفت بجانبه
ونظرت من الكوة إلى الفضاء، فالتفت نحوها وإذا التقت

عيناه بعينيهما تنهّد تنهيدة محرقة ثم حول وجهه وأغمض أجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعية في أعماق اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها.

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة: «إلى أي مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتنفتح الطرقات»

فأجابها وقد فتح عينيه الكبيرتين وأحدق بالأفق البعيد «سوف أتبع الطريق إلى حيث لا أعلم»

فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة «لماذا لا تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منّا، أليست الحياة ههنا أفضل من الغربة البعيدة»

فأجابها وقد اضطربت أحشائه لرقة كلماتها ونغمة صوتها «إن سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من الدير جازاً لهم، ولا يسمحون له أن يتنفس الهواء الذي يحييهم؛ لأنهم يحسبون عدو الرهبان كافرًا بالله وقديسيه»

فتأوهت مريم ولبثت ساكنة لأن الحقيقة الجارحة قد أحرستها؛ حينئذٍ أسند خليل رأسه بيده وقال «إن

١٣٤

سكان هذه القرى يا مريم قد تعلّموا من الرهبان والكهان بُغْضَ كل من يفتكر لذاته، فصاروا يقلّدونهم وبيتعدون مثلهم عن جميع الذين يريدون أن يصرفوا حياتهم فاحصين لا تابعين، فإذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها تعالوا يا إخوتي نعبد ونصلي حسب مشيئة نفوسنا لا مثلما يريد الرهبان والقسس لأن الله لا يريد أن يكون معبودًا من الجاهل الذي يقلّد غيره يقولون هذا ملحد يعاند السلطة التي وضعها الله في أيدي كهانه. وإن قلت لهم أصغوا يا إخوتي واسمعوا صوت قلوبكم واعملوا إرادة الروح الكائنة في أعماقكم يقولون هذا شرير يريدنا أن نكفر بالوسائط التي أقامها الله

ونظر خليل إذ ذاك إلى عيني مريم وبصوت يحاكي رنين الأوتار الفضية قال: (ولكن في هذه القرية يا مريم قوة سحرية تمتلكني وتتشبث بنفسي - قوة علوية قد أنستني اضطهاد الرهبان وحببت إليّ قساوتهم، في هذه القرية لقيت الموت وجهاً لوجه وفيها عانقت روحي روح

١٣٥

الله، في هذه القرية زهرة نابذة بين الأشواك يستميل جمالها نفسي ويملاً عطرها كبدي فهل أترك هذه الزهرة وأذهب مبشراً بالمبادئ التي أبعدتني عن الدير أم أبقى بجانبها وأحفر لأفكاري وأحلامي قبراً بين الأشواك المحيطة بها، ماذا أفعل يا مريم؟)

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزت قامتها مثلما ترتعش الزنبقة أمام نسيم السحر، وفاضت أشعة قلبها من مقلتيها فقالت والحياء يغالب لسانها: (كلانا بين يدي قوة خفية عادلة رحومة فلندعها تفعل ما تشاء بنا)

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور وتتضوع حولها البخور.

-

٥

-

منذ ابتداء الدهر إلى أيامنا هذه والفئة المتمسكة بالشرف الموروث تتحالف وتتفق مع الكهان ورؤساء

١٣٦

الأديان على الشعب، هي علة مزمنة قابضة بأظافرها على عنق الجامعة البشرية ولن تزول إلا بزوال الغباوة من هذا العالم عندما يصير عقل كل رجل ملكًا ويصبح قلب كل امرأة كاهنًا.

ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين، الأمير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين والكاهن يمد يده إلى جيبه، الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابسًا والمطران يلتف نحوهم مبتسمًا، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع، الحاكم يدعي تمثيل الشريعة والكاهن يدعي تمثيل الدين وبين الاثنين تفنى الأجساد وتضمحل الأرواح.

وفي لبنان — ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير إلى نور المعرفة — قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير الضعيف الذي يحرق الأرض ويستغلها كيما يحمي جسده من سيف الأول ولعنة الثاني.

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره ويصرخ باللبنانيين قائلاً «قد أقامني السلطان وليًا على أجسادكم» والكاهن ينتصب أمام المذبح هاتفًا «قد أقامني الله وصيًا على أرواحكم» أما اللبنانيون فيظلون صامتين لأن القلوب المغلقة بالتراب لا تنكسر لأن الأموات لا يبيكون.

فالشيخ عباس الذي كان في تلك القرية وليًا وحاكمًا وأميرًا كان محبًا لرهبان الدير، محافظًا على تعاليمهم وتقاليدهم لأنهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة وإحياء الطاعة في نفوس حارثي حقوله وكرومه.

ففي ذلك المساء — بينما كان خليل ومريم يقتربان من عرش الحب وراحيل تنتظر إليهما بانعطاف مستطلعة خفايا نفسيهما — ذهب الخوري إلياس كاهن القرية وأخبر الشيخ عباس بأن الرهبان الأتقياء قد طردوا من الدير فتى متمرّدًا شريرًا وأن هذا الملحد الكافر قد جاء القرية منذ أسبوعين، وهو الآن ساكن في بيت راحيل أرملة

سمعان الرامي.

ولم يكتف الخوري إلياس بإبلاغ الشيخ هذا الخبر بل زاد قائلاً: «إن الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية، والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي أثماراً جيدة وهي في الموقد، فإن كنا نريد أن تبقى هذه القرية سالمة من جرائم العلل الخبيثة فعلينا أن نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير»

فسأله الشيخ عباس قائلاً: «وكيف عرفت بأن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة؟ أليس أفضل أن نبقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم أو راعياً للبقر؟ نحن بحاجة ماسة إلى العمال فإذا ما جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نطرده»

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بملامس الأفعى ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة بأصابعه: «لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان؛ لأن أراضي الدير وسيعة

١٣٩

وقطعانه لا تحصي، وقد أخبرني مكاري الدير الذي بات عندي ليلة أمس بأن هذا الشاب كان يردد على مسامع الرهبان آيات الكفر مقرونة بألفاظ ثورية تدل على طيشه وخبايته، فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً (أرجعوا حقول الدير وكرومه وأمواله إلى سكان هذه القرى الفقراء وتفرّقوا إلى كل ناحية وذاك خير من الصلاة والعبادة) وأخبرني المكاري أيضاً بأن قساوة التوبيخ وأوجاع الجلد بالسياط وظلمة السجن لم تُعذ لهذا الكافر صوابه بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلما تكثر أوساخ المزابل عدد الحشرات»

فانتصب الشيخ عباس على أقدامه ونظير نمرٍ يتراجع قليلاً إلى وراء قبيل الوثوب بقي ساكناً هنيئة يُصرُّ أسنانه وينتفض غيظاً، ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه بصوت عالٍ فجاء ثلاثة منهم ووقفوا أمامه مستطلعين أمره، فخاطبهم قائلاً «في بيت

راحيل الأرملة شاب مجرم يرتدي أثواب راهب فذهبوا الآن وقودوه إليّ مكتوفًا

١٤٠

وإن قاومتكم تلك المرأة فاقبضوا عليها وجروها على الثلج بجداول شعرها لأن من يساعد الشرير يكون شريرًا»

فأحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين ليتمموا مشيئة سيدهم، وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما يجب أن يفعله بالشاب المطرود وراحيل الأرملة.

٦

توارى النهار وقَدِمَ الليلُ ناشِرًا خيالاته بين تلك الأكواخ المكتنفة بالثلوج، وظهرت النجوم في ذلك الفضاء المظلم البارد ظهور الأمل بالخلود من وراء أوجاع النزاع والموت، فأوحد الفلاحون الأبواب والنوافذ وأشعلوا السراج وجلسوا يصطلون بقرب الموقد غير حافلين بأشباح الليل السائرة حول بيوتهم.

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم و خليل جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء طرق الباب ودخل عليهم خدام الشيخ عباس، فالتفتت راحيل مذعورة

١٤١

وشهقت مريم مرتاعة أما خليل فلبث هادئًا كأن نفسه الكبيرة قد تنبأت وعلمت بمجيء هؤلاء الرجال قبيل مجيئهم، فاقترب أحد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خليل وقال بصوت أجش «ألسنت أنت الشاب المطرود من الدير؟» فأجابه خليل ببطء: «أنا هو فماذا تريدون»

فقال الرجل «نريد أن نسير بك مكتوفًا إلى منزل الشيخ عباس وإن أبدت ممانعة

نجرك على الثلج كالخروف المذبوح»

فانتصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجدعت جبهتها وقالت بصوت مرتجف «أي ذنب أتاه أمام الشيخ عباس ولماذا تريدون جره مكتوفًا»

وقالت مريم ونغمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها «هو فرد وأنتم ثلاثة فمن الجبانة أن تتحالفوا على إنزاله وتعذيبه»

فصرخ الخادم وقد حمي غضبه «أيوحد في هذه القرية امرأة تعارض مشيئة الشيخ عباس» قال هذا

١٤٢

وانتشل من وسطه حبلًا متينًا وهم ليوثق به كتفي خليل، فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه بل ظل رأسه مرفوعا كالبرج أمام الزوبعة وسالت على شفتيه ابتسامة محزنة ثم قال: «أنا أشفق عليكم أيها الرجال لأنكم آلة قوية عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم، أنتم عبيد الغباوة، والغباوة هي أشد اسودادًا من بشرة الزنوج، وأكثر استسلامًا للحيف والقساوة، كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغدًا تصيرون مثلي، أما الآن فبيننا هوة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا تسمعون ولا تبصرون، ها أنذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم»

سمع الرجال هذا الكلام فجمدت عيونهم واثَّسَعَرَتْ أبدانهم وبُهِتُوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت الحركة من أجسادهم وأيقظت الميول العلوية الهاجعة في أعماق قلوبهم، ولكنهم عادوا فانتبهوا كأن صدى صوت الشيخ عباس قد تملل في مسامعهم وذكرهم بالمهمة التي بعثهم من أجلها، فتقدموا وأوثقوا ساعدي الشاب، وخرجوا

١٤٣

به ساكتين شاعرين بشيء من الألم بين تلافيف ضمايرهم. فاتبعتهم راحيل ومريم ونظير بنات أورشليم عندما اتبعن يسوع إلى الجلجلة سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس.

٧

إن الأخبار كبيرة كانت أم تافهة تنتقل بسرعة الفكر بين الفلاحين في القرى الصغيرة، لأن بُعدهم عن مشاغل الاجتماع المتتابعة يجعلهم أن ينصرفوا بكليتهم إلى استقصاء ما يحدث في محيطهم المحدود، وفي أيام الشتاء عندما تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لحف الثلوج وتنزوي الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون أشد رغبة وأكثر ميلاً إلى استطلاع الأخبار لكي يملأوا بتأثيراتها أيامهم الفارغة ويصرفوا باستفسارها ليااليهم الباردة.

وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعدوى بين سكان تلك القرية، وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم، فتركوا أكواخهم

١٤٤

وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين، فلم يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك الدار الوسيعة الرجال والنساء والصبيان وكلهم يمدون أعناقهم بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير ومن راحيل الأرملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الأرواح الشريرة على بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهن.

جلس الشيخ عباس على مقعد عالٍ وتربع بجانبه الخوري إلياس ووقف الفلاحون والخدام مترقبين مُحْدِقِينَ بالفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود بين المنخفضات. أما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه والخوف يراود قلبيهما ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما، ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق فاتبعته وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صبية سمعت نداء الحب

فاستيقظت؟

ونظر الشيخ عباس إذ ذاك نحو الشاب وبصوت يشابه ضجيج الأمواج سأله قائلاً: ما اسمك أيها الرجل

١٤٥

فأجابه: اسمي خليل. فقال الشيخ: من هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك

فالتفت خليل نحو الفلاحين النازلين إليه بكره واشمئزاز وقال: الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي، وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي.

فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال: إن الذين تنتسب إليهم يطلبون معاقبتك والبلاد التي تدعيها وطناً تأبى أن تكون من سكانها.

فقال خليل وقد اضطربت أحشأؤه: (إن الشعوب الجاهلة تقبض على أشرف أبنائها وتسلمهم إلى قساوة العتاة والظالمين، والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد محبيها ومخلصيها، ولكن أيترك الابن الصالح والدته إذا كانت مريضة، وينكر الأخ الرؤوف أخاه إذا كان تعساً! إن هؤلاء المساكين الذين أسلموني إليك مكتوفاً اليوم هم الذين أسلموك رقابهم بالأمس، والذين أوقفوني مهائناً أمامك هم الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك

١٤٦

ويهرقون دماء أجسادهم على أقدامك، وهذه الأرض التي تأبى أن أكون من سكانها هي الأرض التي لا تفقرُ فاها وتبتلع الطغاة والطامعين)

فقهقه الشيخ عباس ضاحكاً كأنه يريد أن يفرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير إلى أرواح السامعين والبسطاء ثم قال: (أولم تكن راعياً لثيران الدير أيها

الشاب الوقح فلماذا تركت رعبتك وخرجت مطرودًا. هل ظننت أن الشعب يكون أكثر رأفة بالمجازيب الملحدين من الرهبان الأتقياء)

فأجابه خليل: (كنت راعيًا ولم أكن جزاءً، كنت أقودُ العجولَ إلى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ولم أسر بها قط إلى الطلول الجرداء، كنت أوردُها الينابيع العذبة وأبعدها عن المستنقعات الفاسدة، كنت أعيدها في المساء إلى الحظيرة ولم أتركها في الوادي فريسةً للذئاب والضواري الخاطفة، هكذا كنت أفعل بالبهائم ولو فعلت أنت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الآن حولنا لما كنت

١٤٧

تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعاً في الأكواخ المظلمة، لو كنت ترحم أبناء الله المخلصين مثلما كنت أرحم عجول الدير لما كنت جالساً الآن على هذا المقعد الحريري وهم واقفون أمامك وقوف القضبان العارية أمام ريح الشمال)

فتحرك الشيخ عباس منزعجاً وتلمعت على جبهته قطرة عرق باردة، وتبدل ضحكه بالغضب، ولكنه عاد فامتلك نفسه كي لا يظهر الاهتمام والاكتراث أمام رجاله وتابعيه ثم قال مشيراً بيده (لم نأت بك مكتوفاً أيها الكافر لنسمع هذيالك، بل أحضرناك لكي نحاكمك كمجرم شرير فاعلم إذاً بأنك واقف الآن أما سيد هذه القرية وممثل إرادة الأمير أمين الشهابي أيده الله (٢) وأمام الخوري إلياس ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها، فدافع إذاً عن نفسك مما اتُّهمت به أو فاركع مسترحماً نادماً

(٢) الأمير أمين شهاب هو ابن الأمير بشير الكبير وقد حكم

الجبيل بعد موت أبيه

١٤٨

أمامنا وأمام هذا الجمع الساخر بك، فنغفر لك ونجعلك راعياً للبقر مثلما كنت في

فأجاب الشاب بهدوء: (إن المجرم لا يحاكمه المجرمون والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاة)

قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدحم في تلك القاعة الوسيعة وبصوت جهوري يشابه رنين الأجراس الفضية ناداهم قائلاً: «أيها الإخوة، إن الرجل الذي أقامه خضوعكم واستسلامكم سيدًا على حقولكم قد أحضرني مكتوفًا ليحاكمني أمامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا آبائكم وجدودكم، والرجل الذي جعله إيمانكم كاهنًا في كنيسةكم قد جاءني ليدينني، ويساعد على تعذيبي وإذلالي. أما أنتم فقد تراكمتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني متألماً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً، قد تركتم جوانب المواقف الدافئة لتشاهدوا ابنكم وأخاكم مكتوفاً مُهاناً، قد أسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالب الكواسر، قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقعاً أمام القضاة، أنا هو

١٤٩

المجرم، أنا هو الكافر الذي طُرد من دير فحملته العاصفة إلى قريبتكم، أنا هو ذلك الشرير فاسمعوا احتجاجي ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين لأن الشفقة تجوز على المجرمين الضعفاء، أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء، قد اخترتكم قضاتي لأن إرادة الشعب هي مشيئة الله، فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا عليّ بما توحيه ضمائركم، قد قيل لكم بأنني رجل كافر شرير ولكنكم لم تعرفوا ما هي جريمتي، وقد رأيتموني مكتوفاً كاللص القاتل ولم تسمعوا بعد بذنوبي لأن حقيقة الجرائم والذنوب في هذه البلاد تظل مستترة وراء الضباب، أما العقاب فيظهر للناس ظهور أسياف البرق في ظلمة الليل، جريمتي أيها الرجال هي إدراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم، وآثامي أيتها النساء هي شفقتي عليكم وعلى أطفالكن الذين يمتصون الحباة من صدوركن ممزوجة بلهات الموت.

أنا واحد منكم أيها الجمع وقد عاش آبائي وجدودي بين هذه الأودية التي تستفرغ

الذي يلوي أعناقكم، أنا أؤمن بالله الذي يسمع نداء نفوسكم المتوجِّعة ويرى صدوركم المقروعة، وأؤمن بالكتاب الذي يجعلني ويجعلكم إخوة متساوين أمام وجه الشمس وأؤمن بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الأرض موطئ أقدام الله. كنت في الدير راعياً للبقر لكن انفرادي مع البهائم الخرساء في البرية الساكنة لم يُعمني عن المأساة الأليمة التي تمثّلونها كرهاً في الحقول، ولم يصمّ أذني عن صراخ اليأس المتصاعد من قراني الأكواخ، قد نظرت فرأيتني في الدير ورأيتكم في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف إلى وكرة فوقفت في منتصف الطريق وصرخت متسغيثاً فهجم الذئب ونهشني بأنيابه المحددة، ثم احتال عليّ وأبعدني كي لا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مذعوراً إلى كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل. قد احتملت السجن والجوع والعطش من أجل الحقيقة الجارحة التي رأيته مكتوبة بالدماء على وجوهكم، وقاسيت العذاب

والجلد والسخرية لأنني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً صارخاً متموجاً في خلايا الدير، ولكنني لم أخف قط ولم يضعف قلبي لأن صراخكم الأليم كان يتبع نفسي ويجدد قواي ويحبب إليّ الاضطهاد والاحتقار والموت..

أنتم تسألون نفوسكم الآن قائلين (أي متى صرخنا متظلمين وأي فرد منا يتجاسر أن يفتح شفثيه) وأنا أقول لكم بأن نفوسكم تصرخ متظلمة في كل يوم وقلوبكم تستغيث متوجعة في كل ليلة، ولكنكم لا تسمعون نفوسكم وقلوبكم لأن المنازع لا يسمع حشجة صدره أما الجالسون بجانب مضجعه فيسمعون، والطائر المذبوح يرقص متمللاً أسر إرادته ولا يعلم، أما الناظرون فيعملون.. في أي ساعة من النهار لا تتأوه أرواحكم متوجعة أفي الصباح عندما تنتهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى

عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس في ظل الأشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون أم في المساء عندما تعودون جائعين

١٥٢

إلى أكوأخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر. أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسيرة الحجرية فتنامون قلقين ولا يكتحل النعاس أجفانكم إلا وتهبون خائفين متوهمين صوت الشيخ يرن في آذانكم.. وفي أي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة. أفي الربيع عندما ترتدي الطبيعة حُلَّةً جديدة فتخرجون لمشاهدتها بأطمار بالية ممزقة. أم في الصيف عندما تحصدون الزرع وتجمعون الأغمار على البيارد وتملأون أهراء سيدكم الظلوم بالغلة ولا تحصلون لقاء أتعابكم على غير التبن والزوان. أم في الخريف عندما تجنون الأثمار وتقصرون العنب ولا يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط أم في الشتاء عندما يضطهدكم الفضاء ويطردهم البرد والزمهرير إلى الأكوأخ الملتحفة بالثلوج، فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين غضب الزوابع والعواصف. هذه هي حياتكم أيها الفقراء، هذا هو الليل المخيم على أرواحكم أيها التعساء، هذه هي أشباح دُلُكم وشقائقكم أيها المساكين، هذا هو الصراخ

١٥٣

الأليم المستمر الذي سمعته خارجًا من أعماق صدوركم فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم، ووقفت منفردًا متظلمًا باسمكم واسم العدالة المتوجعة بأوجاعكم فحسبوني كافرًا شريزًا وطرّدوني من الدير فجئت لكي أشاطركم التعاسة وأعيش بقربكم وأمزج دموعي بدموعكم فأسلمتموني مكتوفًا إلى عدوكم القوي الذي يغتصب خيراتكم ويحيا غنيًا بأموالكم ويملا جوفه الواسع من أثمار أتعابكم ... ألا يوجد بينكم شيوخ يعلمون بأن الأرض التي تَحْرَثُونَهَا وتَحْرِمُونَ غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ عباس من آبائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد السيف؟ أما سمعتم بأن الرهبان قد احتالوا على جدودكم وامتلكوا مزارعهم وكرومهم عندما كانت آيات الدين مخطوطة على شفتي الكاهن؟ ألا تعلمون بأن ممثلي الدين وأبناء

الشرف الموروث يتعاونون على إخضاعكم وإذلالكم واستقطار دماء قلوبكم؟ أي رجل منكم لم يُلْوَ عُقْفَهُ كاهنُ الكنيسة أمام سيد الحقول. وأي امرأة بينكم لم

١٥٤

يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن الكنيسة؟..

قد سمعتم بأن الله قد قال للإنسان الأول (بعرق جبينك تأكل خبزك) فلماذا يأكل الشيخ عباس خُبْزه مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمره ممزوجاً بدموعكم

؟

هل ميّز الله هذا الرجل وجعله سيّداً إذ كان في رَجْمٍ أمه أم غَضَبٍ عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً إلى هذه الحياة لكي تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلون غير أشواك الأودية، وتقيموا القصور الفخمة ولا تسكنون غير الأكواخ المتداعية؟ قد سمعتم بأن يسوع الناصري قد قال لتلامذته (مجاناً أخذتم ومجاناً أعطوا..لا تفتنوا فضة ولا ذهباً ولا نحاساً في مناطقكم) إذا أي تعاليم أباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة والذهب؟.. أنتم تصلون في سكينة الليالي قائلين (أعطنا يا رب خبزنا كفاف يومنا) والرب قد وهبكم هذه الأرض لتعطيكم الخبز والكفاف فهل وَهَبَ رؤساء الأديرة السلطة

١٥٥

لانتزاع هذا الخبز من بين أيديكم؟ أنتم تلعنون يهوذا لأنه باع سيده بالفضة فأَي شيء يجعلكم أن تباركوا الذين يبيعونه في كل يوم من حياتهم؟ إن يهوذا التمس قد ندم على خطيئته فشنق نفسه، أما هؤلاء فيسيرون أمامكم برؤوس مرفوعة وأذنيال طويلة ناعمة وقلائد ذهبية وخواتم ثمينة، أنتم تعلمون أبنائكم محبة الناصري فكيف تعلمونهم الخضوع أمام مبغضيه ومخالفي تعاليمه وشرائعه، قد عرفتم بأن رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يُحيوا فيكم الروح المقدسة فهل تعرفون بأن

الرهبان والكهان يقتلون أرواحكم لكي يَحْيُوا متمتعين بخيراتكم متلذذين بحرقة قيودكم، ماذا يغركم أيها المساكين في وجود مفعم بالذل والهوان ويبيقيكم راكعين أمام صنم مخيف أقامه الكذب والرياء على قبور آبائكم؟ وأي كنز ثمين تحافظون عليه بخضوعكم لتبقوه إرثًا لأبنائكم؟..

نفوسكم في قبضة الكاهن، وأجسادكم بين مخالب الحاكم، وقلوبكم في ظلمة اليأس والأحزان، فأَي شيء في

١٥٦

هذه الحياة يمكنكم أن تشيروا إليه قائلين (هذا لنا). أتعرفون أيها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه وتقيمونه وصيًا على أقدس أسرار نفوسكم

؟

اسمعوني فأبين لكم ما تشعرون أنتم به وتخافون إظهاره، هو خائن يعطيه المسيحيون كتابًا مقدسًا فيجعله شبكة يصطاد بها أموالهم ومُرَائِي يقلده المؤمنون صليباً جميلاً فيمتشقّه سيقاً سنيناً ويرفعه فوق رؤوسهم، وظالم يسلمه الضعفاء أعناقهم فيربطها بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ولا يتركها حتى تنسحق كالْفَخَّار وتنبد كالرماد. هو ذئب كاسر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً وعند مجيء الظلام يَثْبُ على النعاج ويخنقها نعجة إثر نعجة، هو نهم يحترم موائد الطعام أكثر من مذابح الهيكل، وطامع يتبع الدينار إلى مغاور الجن ويمتص دماء العباد مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر، وبخيل يحرص على أنفاسه ويدّخر مالا يحتاجه، هو محتال يدخل من شقوق الجدران ولا يخرج إلا بسقوط البيت، ولص صخري

١٥٧

القلب ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم، هو مخلوق عجيب له منقار النسر

ومقابلض النمر وأنياب الضبع وملامس الأفعى، خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته
وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضموا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بمحبة،
اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم أجلسوه على موائدكم فيتناسى
ويتهلل ويحل حزامه لينمو جوفه بمأكلكم ومشاربكم، جدفوا على اسم ربه واقدفوا
بعقائده واسخروا بإيمانه ثم ابعثوا إليه بجرة من الخمر أو بسلة من الفاكهة
فيسامحكم ويبرركم أمام الله والناس، يرى المرأة فيحول وجهه قائلاً بأعلى صوته
(ابتعدي عني يا ابنة بابل) ثم يهمس بسرّه قائلاً (الزيجة أفضل من التحرق).. يرى
الفتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً
(باطلة الأباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل) ثم يختلي ويتنهد قائلاً (لثفن الشرائع
وتضمحل التقاليد التي أبعدتني عن غبطة الحياة، وأحرمتني ملذات العمر).. يقول
للناس مستشهداً

١٥٨

(لا تدينوا لئلاً تدانوا) ولكنه يدين بقساوة جميع الذين يسخرون بمكارهه ويبعث
بأرواحهم إلى الجحيم قبل أن يبعدهم الموت عن هذه الحياة.. يحدثكم رافعاً عينيه
بين الآونة والأخرى نحو العلاء أما فكرته فتظل منسابة كالأفعى حول جيوبكم..
ينادىكم بقوله لكم (يا أولادي ويا أبنائي) وهو لا يشعر بالعاطفة الأبوية ولا تبتسم
شفتاه لرضيع ولا يحمل طفلاً على منكبيه، ويقول لكم هاؤا رأسه بتخشع (لنترفعن
عن العالميات لأن أعمارنا تضمحل كالضباب وأيامنا تزول كالفيء)

وإذا نظرتكم جيداً رأيتموه متمسكاً بأذيال الحياة متشبهاً بأهداب العمر، متأسفاً على
ذهاب الأمس، خائفاً من سرعة اليوم، مترقباً مجيء الغد، يطلب منكم الإحسان وهو
أوفر منكم مالاً فإن أجبتموه ببارككم علناً وإن منعتموه يلعنكم سراً.. في الهيكل
يوصيكم بالفقراء والمحتاجين وحول منزله يصرخ الجائعون وأمام عينيه تمد أيدي
البائسين فلا ينظر ولا يسمع، يبيع صلاته ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وأنبيائه

١٥٩

من الجنة والنعيم... هذا هو المخلوق الذي يخيفكم أيها المسيحيون، هذا هو الراهب الذي يمتص دماءكم أيها الفقراء، هذا هو الكاهن الذي يرسم إشارة الصليب بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله، هذا هو الأسقف الذي تقيمونه خادمًا فينقلب سيدًا، وتطوبونه قديسًا فيصير شيطانًا، وترفعونه نائبًا فيصبح نيرًا ثقیلاً، هذا هو الظل الذي يتبع أرواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها إلى الأبدية، هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي يدينني ويرذلني لأن روحي تمردت على أعداء يسوع الناصري الذي أحبكم ودعاكم إخوة له ثم صُلب من أجلكم»

وتهلل وجه الشاب المكتوف وقد شعر باليقظة الروحية المتمايلة في صدور سامعيه واتَّصَحَتْ له تأثيرات كلامه في وجوه الناظرين إليه فرفع صوته وزاد قائلاً «قد سمعتم أيها الإخوة بأن الشيخ عباس قد أقامه الأمير أمين الشهابي سيدًا على هذه القرية، وسمعتم أيضًا بأن الأمير قد أقامه

١٦٠

المليك حاكمًا على هذا الجبل، فهل سمعتم أو رأيتم القوة التي أقامت المليك ربًا على هذه البلاد؟ أنتم لا ترون تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ولكنكم تشعرون بوجودها في أعماق أرواحكم، وتسجدون أمامها مصلين مبتهلين وتنادونها بقولكم (أبانا الذي في السماوات). نعم إن أباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والأمراء وهو القادر على كل شيء، ولكن هل تعتقدون بأن أباكم الذي أحبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة أنبيائه يريد أن تكونوا مظلومين ومرذولين؟ هل تعتقدون بأن الله الذي يُنزل السحاب مطرًا، ويستنبت البذور زرعًا، وينمي الزهور أثمارًا، يريد أن تكونوا جياعًا مُحْتَرِّين لكي يبقى واحد بينكم منتفخًا متلذذًا؟ هل تعتقدون بأن الروح السرمدى الذي يوحي إليكم محبة الزوجة والرافة بالبنين والشفقة على القريب يقيم عليكم سيدًا قاسيًا يظلمكم ويستعبد أيامكم؟ هل تعتقدون بأن النواميس الأزلية التي تحب إليكم نور

161

الحياة تبعث إليكم يمن يجيب إليكم ظلمة الموت. هل تعتقدون بأن الطبيعة قد بعثت القوى في أجسادكم لكي تعود وتخضعها أمام الضعف أنتم ال تعتقدون بهذه الأشياء لأنكم إن فعلتم تكونون كافرين بالعدل الإلهي جاحدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس. إذا أي شيء يجعلكم أن تساعدوا الشر على نفوسكم. ولماذا تخالفون مشيئة الله الذي بعثكم أحراراً إلى هذا العالم وتصيرون عبيداً للمتمردين على ناموسه. كيف ترفعون أعينكم نحو الله القوي وتدعونه أباً ثم تحنون رقابكم أمام الإنسان الضعيف وتدعونه سيذاً كيف يرضى أبناء الله أن يكونوا عبيداً للبشر. اما دعاكم يسوع إخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدماً. اما جعلكم يسوع أحراراً بالروح والحق فكيف يجعلكم الأمير عبيداً للحيف والفساد. اما رفع يسوع رؤوسكم نحو السماء فكيف تعمرونها بالظلام ... إن الله قد بعث أرواحكم إلى هذه الحياة كشعلات مضيئة تنمو بالمعرفة وتزيد جمالا باستطلاعها خفايا الأيام والليالي فكيف تلحقونها بالرماد لتبيد وتنطفئ. إن الله قد وهب نفوسكم أجنة لتطير بها ساحة في فضاء الحب والحرية فلماذا تجزونها بأيديكم وتدبون كالحشرات على أديم الأرض. إن الله قد وضع في قلوبكم بزور السعادة فكيف تنتزعونها وتطرحونها على الصخر لتلثقها الغربان وتذربها الارياح . إن الله قد رزقكم البنين والبنات لكي تدربوهم على سبل الحق وتملأوا صدورهم باغاني الكيان وتتركوا لهم غبطة الحياة ارنأ ثميناً فكيف تهجعون وتخلفونهم امواتاً بين ايدي الدهر غرباء في ارض مولدهم تعساء امام وجه الشمس . اوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً يكون كالوالد الذي يساله ابنه خبراً فيعطيه حجراً . اما رايتم عصافير الحقل تدرب فراخها على الطيران فكيف تعلمون صغاركم جر القيود والسلاسل اما رايتم زهور الاودية تستودع بزورها حرارة الشمس فكيفأسلمون اطفالكم الى الظلمة الباردة »

وسكت خليل هنيهة كان افكاره وعواطفه قد نمت واتسعت فلم تعد ترتدي الالفاظ ثوباً ثم قال بصوت منخفض « ان الكلام الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الرهبان من اجله . والروح التي شعرت بتموجاتها في قلوبكم هي الروح التي اوقفتي مكتوف امامكم . فان وثب علي سيد حقولكم وكاهن كنيستكم وصرعاني اموت سعيداً فرحاً لأنني باظهاري لكم حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تمت مشيئة باري و باريكم كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضرب لها قلوب الرجال الناظرين اليه باعجاب يشابه استغراب الاعمى اذا

ما ابصر فجأة وتهتز الحلاوتها نفوس النساء المحدقات به باعين طافحة بالدموع. اما الشيخ عباس والخوري الياس فكانا يرتجفان غضباً ويتلويان كالمطروحين على وسائد من الاشواك ، وقد حاول كل منهما ان يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع لانه كان يخاطب الجمع بقوة علوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها

ولما انتهى خليل من كلامه وقد تراجع قليلاً الى الوراء ووقف بجانب راحيل ومريم حدث سكوت عميق كان روحه المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حولت بصائر القرويين نحو مكان قصي وانتزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن وواقفتها مرتعشين امام اشباح ضمير يهما المزعجة

حينئذ وقف الشيخ عباس وقد تقلصت ملاحه واصفر وجهه وانتهر الرجال الوالفين حوله قائلاً بصوت مخنوق « ما اصابكم ايها الكلاب . هل تسممت قلوبكم وجمدت الحياة سيفي داخل اجسادكم فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر المهزار . هل اكتنفت روح هذا الشيطان ارواحكم و كبلت بسحره الجهنمي سواعدكم فلم تستطيعوا ابادته » قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان بجانبه وهجم على الفتى المكتوف ليوقع به فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء « اغمد سيفك ياسيدي لان من . بالسيف بالسيف يهلك »

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً « من يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته »

فاجابه الرجل «الخادم الامين لا يشارك سيده بالشروع والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة»

وتقدم رجل اخر وقال لم يقل هذا الفتى شيئاً يستوجب الحكم فيلا ذا تضطهده »

ورفعت امراة صوتها وقالت « لم يقذف بالدين ولم يجذف على اسم الله فلماذا ندعوه كافراً »

فتشجعت راحيل اذ ذاك وتقدمت الى الامام وقالت « ان هذا الشاب يتكلم بالسنتنا ويتظلم عنا ومن يريد به شرّ يكون عدواً أنا »

فقال الشيخ عباس صارفاً اسنانه (وانبّ تتمردين ايضاً ايتها الارملة الساقطة. هل نسيت ما اصاب زوجك عندما تمرد علي منذ خمس سنوات)

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة كمن أدرك سرّاً هائلاً، والتفتت نحو الجمع وصرخت بأعلى صوتها: (هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته في ساعة غضبه؟ ألا تذكرون أن زوجي قد وُجِدَ قتيلاً في الحقل وقد بحثتم عن القاتل فلم تجدوه لأنه كان مختبئاً وراء هذه الجدران؟ ألا تذكرون أن زوجي كان رجلاً شجاعاً؟ أما سمعتموه متكلمًا عن مكاره الشيخ عباس مندداً بأعماله متمرداً على قساوته؟ ها قد أبانت السماء قاتل جاركم وأخيكم وأوقفته أمامكم فانظروا إليه واقرأوا جريمته مكتوبة على وجهه المصفر، انظروه متملماً جازعاً، تأملوا كيف قد ستر وجهه بيديه كي لا يرى عيونكم محدقة به، انظروا السيد القوي مرتجفاً كالقصبّة المرضوضة، انظروا الجبار العظيم مرتاعاً أمامكم كالعبد الخاطي، إن الله قد أراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل الذي تخافونه وأبان لكم النفس الشريرة التي جعلتني أرملة بين نسائكم وتركت ابنتي يتيمة بين أبنائكم)

وبينما راحيل تتكلم صارخة وألفاظها تنقض كالصواعق على رأس الشيخ عباس وضجيج الرجال وزفرات النساء تنموج كشعلات النار والكبريت حول دماغه وقف الكاهن وأخذ بساعده وأجلسه على المقعد ثم نادى الخدام بصوت مرتجف قائلاً « اقبضوا علي هذه الامراة التي تتهم سيدكم زوراً وجروها مع هذا الشاب الكافر الى غرفة مظلمة . ومن يعترضكم يكون شريكاً لهما بالجريمة محروماً نظيرهما من الكنيسة المقدسة »

فلم يتحرك الخدام من اماكنهم ولم يحفلوا باوامر الكاهن بل لبثوا جامدين محدقين بخليل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين عن يمينه وشماله كأنهما جناحان قد فتحهما ليطير ويحلق بهما في السحاب فقال الكاهن ولحيته تراقص حقناً (هل تكفرون بنعمة سيدكم ايها الاجالاف وتجدون فضله وتنكرونه من اجل فتى مجرم

كافر وامرأة عاهرة كاذبة)

فاجابه اكبر الخدام سناً وقال (قد خدمنا الشيخ عباس أفاء الخبز والماوى ولكننا لم نكن له عبيداً قط) قال هذا ونزع عباءته وكوفيته وطرهما امام الشيخ عباس وزاد قائلاً « لا اريد ان انعم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما نبقى نفسي متعذبة في منزل سفاك الدماء »

ففعل الخدام كافة نظيره وانضموا إلى الجمع وعلى وجوههم سيماء الانعتاق والحرية

فلما رأى الخوري الياس ما فعلوه وقد شعر بان سلطته الكاذبة قد تضعضت خرج من ذلك المنزل مجدداً على الساعة التي انت بخليل الى تلك القرية

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحل وثاق خليل ونظر إلى الشيخ عباس المرتمي على كرسيه كجثة هامدة وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة خاطبه قائلاً: «إن الشاب الذي أحضرته مكتوفاً لكي تحاكمه كمجرم أقيم قد أثار قلوبنا المظلمة وحوّل بصائرنا نحو سبل الحق والمعروفة، والأرملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة قد أبانت لنا السر الهائل الذي ظل مكتوماً خمسة أعوام، أما نحن فقد تراكضنا مسرعين إلى هذه الدار بدينونة البريء واضطهاد العادل، والآن وقد انفتحت أعيننا وأرتنا السماء جريمتك المخيفة ومظالمك القاسية نغادرك منفرداً ولا ندينك، ونهلك ولا نشكوك ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك)

وارتفعت إذ ذاك أصوات الرجال والنساء في تلك القاعة الوسيعة فكان هذا يقول: هلموا نخرج من هذا المكان المشحون بالآثام والمعاصي ونذهب إلى بيوتنا. وذا يصرخ: تعالوا نتبع الشاب إلى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية وأقواله العذبة. وذاك يهتف: لنفعلن إرادة خليل فهو أعلم بحاجاتنا وأدرى منا بمطالبنا. وغيره يقول: إن كنا نريد العدل والإنصاف فلنذهب غداً إلى الأمير أمين ونخبره بجرائم الشيخ عباس ونطلب إليه أن يعاقبه. وآخر يصيح: يجب أن نستعطف الأمير ونرجوه أن يقيم خليلاً ممثلاً له في هذه القرية. وغيره يقول: يجب أن نشكو الخوري إلياس إلى الأسقف لأنه

وبينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية وتهبط كالسهام الحادة على صدر الشيخ الخفوق رفع خليل يده وأسكت الجمع بإشارة ثم ناداهم قائلاً: (اسمعوا وتبصّروا أيها الإخوة ولا تكونوا متسرعين، أنا أطلب إليكم باسم محبتي ألا تذهبوا إلى الأمير فهو لا ينصفكم من الشيخ لأن الكواسر لا تنهش بعضها البعض، ولا تشكوا الكاهن إلى رئيسه لأن الرئيس يعلم أن البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب، ولا تطلبوا أن أكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية لأن الخادم الأمين لا يريد أن يكون عوناً للسيد الشرير، إن كنت خليقاً بحكم وانعطافكم فدعوني أعيش بينكم وأشارككم بأفراح الحياة وأحزانها، وأشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل؛ لأنني إن لم أكن كواحد منكم أكن كالمرائين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون غير الشر، والآن وقد وضعت الفأس على أصل الشجرة تعالوا نذهب تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره أمام عرش الله الذي يشرق شمسهُ على الأبرار والأشرار) قال هذا وخرج من ذلك المكان فتبعه الجمع كأن في شخصه قوة تتحول نحوها الأبصار كيفما تحولت، وبقي الشيخ منفرداً كالبرج المهذوم متوجعاً كالقائد المغلوب، ولما بلغ الجمع ساحة الكنيسة وكان القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب أشعته الفضية في السماء التفت خليل ورأى أوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كالخراف النازرة إلى راعيها فتحركت روحه في داخله كأنه وجد في أولئك القرويين المساكين رمز الشعوب المظلومة وشاهد في تلك الأكواخ الحقيرة المكتنفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغمورة بالذل والهوان، فوقف وقفة نبي يسمع صراخ الأجيال، وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كأن نفسه قد أبصرت جميع أمم المشرق سائرة تجر قيود العبودية في تلك الأودية، فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الأمواج صرخ قائلاً

«من أعماق هذه الأعماق ناديك أيتها الحرية فاسمعينا، من جوانب هذه الظلمة ترفع أكتفنا نحوك فانظرينا، وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمنا، أمام عرشك الرهيب نقف الآن ناشرين على أجسادنا أثواب آبائنا الملطخة بدمائهم، عافرين شعورنا بتراب القبور الممزوج ببقاياهم. حاملين السيوف التي أغمدت بأكبادهم، رافعين الرماح التي خرقت صدورهم، ساحبين القيود التي أبادت أقدامهم، صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم، نائحين النواخ الذي ملأ ظلمة سجونهم، مصلين الصلاة التي انبثقت من أوجاع قلوبهم، فأصغي أيتها الحرية واسمعينا، من منبع النيل إلى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية، ومن أطراف الجزيرة إلى

جبهة لبنان تمتد إليك الأيدي مرتعشة بنزاع الموت، ومن شاطئ الخليج إلى أذيال الصحراء ترتفع نحوك الأعين مغمورة بذوبان الأفئدة، فالتفتي أيتها الحرية وانظرينا: في زوايا الأكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تُقرع أمامك الصدور، وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تُطرح لديك القلوب، وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور والاستبداد تحن إليك الأرواح، فانظري أيتها الحرية وارحمينا ... في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة، وفي الكنائس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك، وفي المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهملة فأشفقي أيتها الحرية وخلصينا .. في شوارعنا الضيقة يبيع التاجر أيامه ليعطي أثمانها إلى لصوص المغرب ولا من ينصحه وفي حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الأرض بأظافره ويزرعها حبات قلبه ويسقيها دموعه ولا يستغل غير الأشواك ولا من يعلمه. وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي غارياً حافياً جائعاً ولا من يترأف به فتكلمي أيتها الحرية وعلمينا

« نعاجنا ترتعي الأشواك والحسك بدلاً من الزهور والأعشاب. وعجولنا تقضم أصول الأشجار بدلاً من الذرة. وخيولنا تلتهم الهشيم بدلاً من الشعير فهلبي أيتها الحرية وأنقذينا _

« منذ البدء وظلام الليل يخيم على أرواحنا فإلى متى يجيء الفجر. من الحبوس إلى الحبوس تنتقل أجسادنا والأجيال تمر بنا ساخرة فإلى متى نحتمل سخرية الأجيال ومن نير ثقيل إلى نير أثقل تذهب أعناقنا وأمم الأرض تنظر من بعيد ضاحكة منا فإلى مَ نصبر على ضحك الأمم

172

ومن القيود إلى القيود تسير ركابنا فلا القيود تفنى ولا نحن ننقرض فإلى متى نحيا _

« من عبودية المصريين إلي سبي بابل إلى قساوة الفرس إلى خدمة الإغريقيين إلى استبداد الروم إلى مظالم المغول إلى مطامع الإنكليز فإلى أين نحن سائرون الآن وأي

» من مقابض فرعون إلي مخالب نبوخذنصر إلى أظافر الاسكندر إلى أسياف
هيروودس إلى برائن نيرون إلى أنياب الشيطان فإلى يد من نحن ذاهبون الآن وأي
متي نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينة العدم _

» بعزم سواعدنا قد رفعوا أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهتهم. وعلى ظهورنا قد نقلوا
الطين والحجارة لبناء الأسوار والبروج لتعزيز حماهم. وبقوي أجسادنا قد أقاموا
الأهرام لتخليد أسمائهم. فحتي متى نبني القصور والصروح ولا نسكن غير الأكواخ
والكهوف. و نملاً الأهرام والخزائن ولا نأكل غير الثوم والكراث. ونحوك الحرير
الصوف ولا نلبس غير المسوح والاضمار -

" بخبثهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة وأبعدوا الطائفة عن الطائفة،
وبَعَّضُوا القبيلة بالقبيلة، فحتي متى نتبدد كالرماد أمام هذه الزوبعة القاسية،
ونتصارع كالأشبال الجائعة بقرب هذه الجيفة المنتنة.

لحفظ عروشهم وطمأنينة قلوبهم قد سَلَّحُوا الدرزي لمقاتلة العربي وحمَّسُوا الشيعي
لمصارعة السني ونشطوا الكردي لذبح البدوي وشجعوا الأحمدى لمنازعة المسيحي،
فحتي متى يصرع الأخ أخاه على صدر الأم وإلى متى يتوعد الجار جاره بجانب قبر
الحبيبة وإلّا مَ يتباعد الصليب عن الهلال أمام عين الله -

"أصغي أيتها الحرية واسمعينا، التفتي يا أم ساكني الأرض وانظرينا فنحن لسنا أبناء
ضُرَّتْكَ، تكلمي بلسان فرد واحد منا، فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس، أيقظي
بحفيف أجنتك روح رجل من رجالنا، فمن سحابة واحدة ينبثق البرق وينير بلحظة
خلايا الأودية وقمم الجبال بددي بعزمك هذه الغيوم السوداء وانزلي كالصاعقة
واهدمي كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم . المصفحة
بذهب الجزية والرشوة المغمورة بالدماء والدموع

»اسمعينا أيتها الحرية، ارحمينا يا ابنة أثينا، أنقذينا يا أخت رومة، خلصينا يا رفيقة
موسى، أسعفينا يا حبيبة محمد، علمينا يا عروسة يسوع، قوي قلوبنا لنحيا أو شدي

كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاحين محدقة به، وعواطفهم تنسكب مع نغمة صوته، ونفوسهم تتطاير مع أنفاسه، وصدورهم تخفق بنبضات قلبه، فكأنه أصبح منهم في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد، ولما انتهى من مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء: «قد جمعنا هذا الليل في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار، وأوقفنا المظالم أمام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم كالفراخ تحت جناحي الروح الخالدة، فليذهب الآن كل منا إلى فراشه لينام مترقبًا لقاء أخيه في الصباح» قال هذا ومشى متبعمًا خطوات راحيل ومريم إلى كوخهما، فتفرق إذ ذاك الجمع وذهب كلٌّ إلى بيته مفكرًا بما سمعه ورآه شاعرًا بملامس حياة جديدة في داخل نفسه.

ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الأكواخ وألقت السكينة وشاحها على تلك القرية وحملت الأحلام أرواح الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع أشباح الليل مرتعدة أمام ذنوبه متعذبة بين أنياب هواجسه

- ٨ -

مر شهران وخليل يكب سرائر روحه في قلوب اولئك القرويين محدثا اياهم في كل يوم عن غوامض حقوقهم وواجباتهم مصورا لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين مرددا على مسامعهم اخبار الحكام القساة جاعلاً بين عواطفه وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الازلية التي تقيد الاجرام ببعضها . فكانوا يصفون اليه بفرج يضارع بهجة الحقول الزمانة بانهطال الامطار ويرددون كلامه في خلوتهم ملبسين نسيمات مقاصده اجسادا من محبتهم غير حافلين بالخوري الياس الذي اصبح يتزلف اليهم منذ ظهور جريمة حليفه الشيخ ويقترب منهم ليأكل الشمع بعد ان كان صلباً كالرخام

اما الشيخ عباس فقد اصيب بعلقة في نفسه شبيهة بالجنون فكان يسير ذهاباً وإياباً في رواق منزله كالنمر المسجون وينادي خدامه بأعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران ويصرخ مستنجدا برجاله فلا يأتي لمعونته غير زوجته المسكينة التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه واستبداده . ولما جاءت ايام الصوم واعلنت السماء قدوم الربيع انقضت ايام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء فمات بعد نزاع مروع مخيف وذهبت روحه محمولة على بساط اعماله لتقف عارية امام ذلك العرش

الذي نشعر بوجوده ولا نراه وقد اختلفت اراء الفلاحين في سبب موته فكان بعضهم يقول قد اختلفت شعوره فقضى مجنوناً وبعضهم يقول قد سمم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً اما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن بانها ماتت خائفاً مرتاء لان شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً اثواباً ملطخة بالدماء ويقوده كرها عندما ينتصف الليل إلى المكان الذي وجد فيه مصروعاً منذ أعوام.

.....

واعلنت ايام نيسان لسكان تلك القرية سرائر الحب الخفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل فتهللت وجوههم فرحاً ورقصت قلوبهم ابتهاجا ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي ايقظ قلوبهم الى محبط اوسع وارقي من وسطهم . فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بصيرورته جاراً قريباً ومهراً محبوباً لكل واحد منهم

ولما جاءت ايام الحصاد خرج الفلاحون الى الحقول وجمعوا الاغمار على البيادر ولم يكن الشيخ عباس هناك ليغتصب الغلة ويحملها الى اهوارائه ومخازنه بل كان كل من الفلاحين يستغل الحقل الذي فلحه وزرعه فامتلات تلك الاكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت

اما خليل فكان يشاطرهم الاتعاب والمسرات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الاثمار . ولم يكن يميز نفسه عن الواحد منهم إلا بمحبته ونشاطه

منذ تلك السنة إلى أيامنا هذه أصبح كل فلاح في تلك القرية يشتغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالاتعاب ويجمع بالمسرة أثمار البستان الذي غرسه بالمشقة. فصارت الأرض ملكاً لمن يفلحها والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرثها

والآن قد انقضى نصف قرن على هذه الحادثة. وراودت البقظة أجفان اللبنانيين. يمر المسافر على طريقه إلى غابة الأرز ويقف متأملاً بمحاسن تلك القرية الجالسة كالعروس على كتف الوادي فيرى اكواخها قد صارت بيوتا جميلة مكتنفة بالحقول

الخصبة والحدائق الناضرة. وإن سأل أحد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجيبه مشيرًا نحو حجارة منقوضة وجدران مهدومة وأعمدة مرتمية قائلاً،،هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته“. وإن سأله عن خليل يرفع يده إلى العلاء قائلاً،،هناك يسكن خليلنا الصالح أما تاريخ حياته فقد كتبه آباؤنا بأحرف من شعاع على صفحات قلوبنا فلن تمحوه الأيام والليالي“

Source credits

ويكي مصدر العربية

https://ar.wikisource.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D9%88%D8%A7%D8%AD_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%85%D8%B1%D8%AF%D8%A9_%281908%29

https://ar.wikisource.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D9%88%D8%A7%D8%AD_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D9%85%D8%B1%D8%AF%D8%A9_%281908%29

طبعة نيويورك العربية الأولى (1908): إهداء جبران وقصصه الأربع كاملة. استُبعدت «مقدمة وانتقاد» المستقلة لأمين الغريب، مع حفظ بيانات النسخ والمراجعات في سجل المصدر.

النص الأصلي في الملكية العامة؛ توفي المؤلف سنة 1931م. إسهامات النسخ في ويكي مصدر منشورة وفق رخصة المشاع الإبداعي نَسَب المُصنَّف-المشاركة بالمثل 4.0: <https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/>. تبقى هذه الرخصة واجبة على الإسهامات المحمية؛ لا تُنسب إليها قيود على النص الأصلي الواقع في الملكية العامة.

تأليف جبران خليل جبران؛ النسخ الإلكتروني لمساهمي ويكي مصدر العربية. يُنسب كل قسم إلى صفحة مصدره وتاريخ مساهميتها؛ الروابط ومعزّفات المراجعات محفوظة في سجل المصدر. اقتصر التغيير على حذف واجهة الموقع والفهارس المكررة وإعادة تنسيق الفراغات، مع إبقاء المتن والشعر والحواشي الأصلية.

الأرواح المتمردة (1908)

جبران خليل جبران